د. فؤاد زكريا

# العرب والنموذج الأمريكي



د . فؤاد زكريا

# العرب والنموذج الأمريكى

دار الفكر المعاصر
٤ ميدان الجمهورية - القاهرة

الطبعة الأولى ـ مايـو ١٩٨٠

# الفصل الاول

## التغلغل الاميركى فى عقولنا

**على عكس مايقول الكثيرون ، أعتقد أن العالم يشهد فى السنوات الاخيرة مداأمريكيا واسع النطاق ، فهزيمة أميركا فى فيتنام قد تقادم عهدها ، والضربة التى تلقتها** أميركا فى أفغانستان ثم ايران ضربة موجعة بلا شك . ولكن فى مقابل ذلك أحرزت أميركا انتصارين على أعظم جانب من الخطورة : أحدهما فى الصين ، مفتاح الشرق الاقصى ، حيث أصبحت السياسية الصينية ـ فى الاونة الأخيرة ـ ذيلا للسياسة الاميركية ، بل أصبحت أشد منها تحمسا فى محاربة جميع خصوم أميركا ، ووصلت الى حد محاربة حركات التحرر الوطنى أينما كانت . والاخر فى مصر ، مفتاح الشرق الاوسط، حيث تسير السياسية الرسمية فى اتجاه التحالف الصريح مع أميركا على جميع الجبهات ، وحيث يتوقع الاميركيون من المعاهدة المصرية الاسرائيلية أن تكون الخطوة الاولى فى طريق

السيطرة الشاملة على المنطقة ، والقضاء على الحركات المعارضة لنفوذهم فى المناطق الأخرى المحيطة بالشرق الاوسط ٠

وربما قيل أن الاحداث الاخيرة قد أفقدت أميركا الصداقة التقليدية المطلقة التى كانت تحملها لها بعض الدول العربية المحافظة ، وأن هذا يدخل فى باب الخسارة بالنسبة الى النفوذ الاميركى فى الشرق الاوسط ٠ ولكن ينبغى أن نتنبه الى أن السبب الذى تعلنه هذه الدول صراحة لغضبها من أميركا هو أنها لاتحمى أصدقاءها بحزم كاف ٠ كما أثبتت الاحداث الايرانية بوضوح ٠ وأبسط تحليل لهذا السبب يدلنا على أن الغضب فى هذه الحالة لايرجع الى نزعة تحررية لدى هذه الدول ، بقدر ما يرجع الى خيبة أملها فى تساهل أميركا أو سلبيتها ٠ وبعبارة أخرى ، فلو كانت أميركا قد أظهرت مزيدا من الحزم فى ايران ( وكلنا نفهم ماذا يعنيه « الحزم » فى هذه الحالة ) ٠ وتمكنت من حماية « أصدقائها » فى ذلك البلد ، لما غضب منها أحد ٠ وهكذا فان الصداقة المفقودة لاتحسب ، فى الواقع ، ضمن خسائر أميركا ، لانها تعبر عن وجهة نظر أولئك الذين كانوا يتوقعون من أميركا أن تكون أشد بطشا ، وكانوا يتمنون أن تكون قبضتها أكثر أحكاما ـ أى كانوا يريدون من أميركا أن تكون أكثر « تأمركا » بالمعنى التقليدى لهذا اللفظ ٠

هناك ، اذن ، حركة توسع أميركية فى الشرق الاوسط ٠ ولكننى أود أن أركز حديثى على منطقتنا ، ومن هذه الزاوية

أستطيع أن أقول أن أمال أميركا فى المنطقة قد انتعشت الى أبعد حد فى السنوات الاخيرة ، ان لم يكن بسبب أنتصاراتها الذاتية فعلى الاقل بسبب هزيمة القوى المناوئة لها ٠

ولكن الاهم من ذلك أن هناك مدا أميركيا داخل عقولنا ونفوسنا : فالنموذج الاميركى يفرض نفسه علينا بقوة متزايده، والاسلوب الاميركى فى الحياة، الذى قد يرفضه الكثيرون فى العلن ، يقابل فى السر باعجاب متزايد ، والقوة الاميركية العسكرية والاقتصادية والاعلامية تبهر أعدادا متزايدة من العرب بل ان اجهزة الاعلام فى أكبر دولة عربية ، وهى مصر ، أصبح يسيطر عليها أشخاص لاهدف لهم سوى تجميل صورة أميركا وعرضها بأزهى الالوان ، ولن أكون مبالغا اذا قلت أن هذه الاجهزة قد نجحت بالفعل فى اقناع الكثيرين بروعة هذه الصورة ، ووصل هذا الاقتناع الى حد الاقتناع السائد على أعلى المستويات بأن محاكاة النموذج الاميركى يمكن أن يحل جميع مشكلات بلد كمصر ويدفعها بخطوات سريعة الى الامام مادام هذا النموذج قد جعل من أميركا ذاتها أعظم وأقوى دول العالم فى مائتى سنة فقط ٠

لقد أصبحت « الوصفة » غاية فى البساطة : أميركا بنت نفسها فى قرنين من الزمان ، فأصبحت أعظم بلاد العالم ٠ اذن فاتباعنا للنموذج الاميركى سيجعلنا بدورنا عظماء متقدمين، وسينقلنا من الفقر الى الغنى ، ومن الضعف الى القوة ٠

هذه هى العقيدة الجديدة التى لاتوجد فقط فى عقول

بعض الزعماء ، بل تتسرب بشتى الوسائل الى عقول الناس العاديين • ولو تأملنا المحيطين بنا من الناس ، لوجدنا نسبة كبيرة منهم تؤمن ، داخليا على الاقل ، بفعالية هذه « الوصفة » وتقف مشدوهة ، أمام عظمة النموذج الاميركى ، وتتمنى فى قرارة نفسها لو أستطعنا أن نحاكيه فى مجتمعاتنا •

هذا المد الاميركى الزاحف ، على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى ، وعلى المستوى الفردى فى عقول الناس ونفوسهم ، هو الذى أقنعنى بضرورة الكتابة من أجل تحليل النموذج الاميركى تحليلا موضوعيا ، وايضاح أبعاده للانسان العربى حتى يتخذ موقفه من هذه المسألة الحيوية بوعى وتبصر ، دون أن ينجرف فى تيار الدعاية أو يغرق فى خضم التضليلات •

* * *

وليعذرنى القارىء اذا بدأت هذا التحليل بتقديم نفسى من الزاوية المطروحة فى صفحات هذا الكتاب ، أعنى من حيث علاقتى الشخصية بأميركا • فكاتب هذه السطور قضى فى الولايات المتحدة خمس سنوات من أخصب فترات حياته ، وفيها أنجب أثنين من أبنائه الثلاثة ، وألف اثنين من أعز كتبه اليه • وفى أميركا يعيش شقيق له مهاجر حصل على جنسيتها ، ومازالت علاقاته الشخصية بكثير من الاصدقاء الاميركيين تحمل كل سمات الود والوفاء • وليس فى تاريخ كاتب هذه السطور أنتماء الى اية هيئة أو حزب معاد بطبيعته ، وبحكم أيديولوجيته ، لاميركا •.

هذا التقديم الشخصى بدا لى ضروريا حتى يدرك القارىء الروح التى أكتب بها هذا التحليل . ذلك لان من السهل الاعتراض على شهادة من يحكم على أميركا من منطلق عدائى ، ومن يرفض أيديولوجيتها رفضا مبدئيا دون أن يعايشها أو ينغمس فى دروب حياتها . لكننى أردت أن أطمئن القارىء، منذ البداية ، الى أنى لن أتخذ وجهة نظر معادية بلاتفاهم ، والى أ ننىعرفت أميركا عن قرب ، ومن حقى أن أدلى عنها بشهادتى فى هذه الايام التى يطرح فيها النموذج الاميركى نفسه علينا بقوة والحاح .

من طبيعة اميركا انها بلد يدعو الى الانبهار . انها بلد جمع فى داخله أكبر كمية من « أفعل التفضيل » : من أقوى ، وأغنى ، وأحدث من كل بلاد العالم . كل شىء فيها أضخم ، وأسبق ، وأعظم مما تجده فى أى بلد اخر . أنها البلد الذى وصلت فيه سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتسخيرها لخدمته ، وتأكيد سيادة العقل البشرى على العالم المادى وقدرته على تشكيله وفقا لغاياته ، الى حد يفوق ماكان يحلم به الفلاسفة والادباء وأصحاب « المدن الفاضلة » على مر التاريخ . هذه حقيقة لايقدر على أنكارها فى عالمنا المعاصر أحد .

ولكن القضية التى اود ان أدافع عنها ، فى هذه الدراسة هى :

**أولا** : ان النموذج الاميركى فريد فى نوعه ، حدث مرة واحدة ولايقبل التكرار .

**ثانيا** : ان هذا النموذج الاميركى ،الذى يدعو حقا الى الانبهار ، ملىء بالعيوب الذاتية ٠

**ثالثا** : ان هذا النمـوذج لايصـلح لاى بلد فى العالم الثالث ، ولا لاى بلد فى العالم العربى بوجه خاص ٠

* * *

قلت من قبل ان المد الاميركى يزحف ، لا الى سياستنا واقتصادنا فحسب ، بل الى عقولنا أيضا ٠ قد نحمل على أميركا حين ينكشف دورها فى مسـاندة أسرائيل بصـورة مفضوحة ، ولكن فى عقول الكثيرين منا اعجابا صامتا بها ، مقرونا بالرهبة والانبهار ٠

وفى أعتقادى أن الاعجاب المفرط بأميركا يظهر ، فى عالمنا العربى ( وربمـا فى جميع بلاد العالم الثالث ) بين الفئـات الاتية :

١ ـ ان هناك أولا أصحاب المصالح المباشرة ٠ ولا أعنى بذلك فقط أولئك الذين ترتبط مكاسـبهم الاقتصـادية بأميركا ، كأصحاب التوكيلات والشركات المتعاملة مع أميركا، بل أعنى أيضا أولئك الذين يؤمنون بأن أعمالهم ، حتى ولو لم تكن ترتبط مباشرة بأميركا ، لاتزدهر الا فى جو يسوده الود والوئام مع هذا البلد ٠

فهؤلاء يعتقدون أن أرتباط بلادهم بأميركا يهيىء لهم أفضل مناخ يستطيعون فيه أن يمارسوا نشاطهم الاقتصادى ـ

الذى هو عادة نشاط حر ذو طبيعة رأسمالية ــ وهم آمنون على مصالحهم • وكثيرا ماتجــد هؤلاء يبررون مواقفهم بشتى التبريرات التى قد تغلف بقشرة معنوية أو أخلاقية أو حتى دينية ، ولكن من وراء هذا كله توجد المصالح المباشرة •

هذه الفئة تتخذ موقفا صريحا ، واضحا ، لايستطيع أحد أن يلومها عليه ، مادام ينسجم مع أهداف الحياة التى أختارتها لنفسها •

٢ ــ أما الفئة الثانية فينتمى اليها أشخاص يتسمون بانحــراف الوعى الاجتمــاعى والاخلاقى ، فتطغى مشــاعرهم ورغباتهم الانانية على تقييمهم للنمط الاميركى فى الحياة • هؤلاء قد لايكونون أصحاب مصالح مباشرة مع الاميركيين ،• كالفئة السابقة ، ولكنهم ينظرون الى أميركا على أنها مرادفة للترف ، والمتعة الاستهلاكية ، والمستوى المعيشى المرتفع ، والسيارات الفارهة ، والاجهزة الالكترونية الراقية • ومعظم أفراد هذه الفئــة من المهنيين ، ولكننــا قد نجــد بينهم عمالا فنيين ، أو حتى مجموعات تنتمى الى فئات أدنى • هؤلاء جميعا تتجه أمانيهم وتطلعاتهم الى تحقيق النموذج الاميركى فى حياتهم الخاصة ، وينفرون من أى نموذج اخر باعتباره مرادفا للتقشــف والاقتصــار على الضروريات والحــرمان من متــع « الحياة اللذيذة » •

وتتسم هذه الفئة بأنها لاتطرح على نفسها اسئلة من نوع : هل هذا الرخاء الاســتهلاكى الذى قد يجلبــه النمــوذج

الاميركى لهم ، يمكن أن يصل الى الجميع ، حتى الفقراء من الناس ؟ ألن يغدو الفقراء أشد فقرا ، ويزداد حرمانهم بقدر مايزداد أستمتاع الفئة المميزة فى المجتمع ؟ هل ينجح النمط الاميركى فى الحياة ، حين يطبق على بلد متخلف أو محدود الموارد ، فى حل مشكلات فئات المجتمع كلها ، أم أنه يرضى فئة محدودة الى أقصى حد ، على حساب أوسع فئات المجتمع ؟ هذه اسئلة لاتطرحها الفئة التى نتحدث عنها من المعجبين بالنمط الاميركى • وليس معنى عدم طرحها لهذه الاسئلة أنها دائما غير واعية بها ، بل أننى أعرف – من تجربتى الشخصية – حالات كثيرة لاشخاص لديهم أدراك كامل للتمييز الصارخ الذى يجلبه الاخذ بالنموذج الاميركى ، ومع ذلك فانهم يتعلقون به أشد التعلق لانهم ، ببساطة ، لايكترثون بمصير الفئات الاخرى ، ولايضيرهم على الاطلاق ان ينعموا على حساب غيرهم • ان لسان حال كل منهم يقول : مادامت مشكلتى الشخصية قد حلت ، ففيم يهمنى الاخرون ؟

٣ – وتأتى بعد ذلك فئة أولئك الذين أرتبطت حياتهم فى وقت ما ، باميركا ، أعنى أولئك الذين تلقوا العلم فيها ، أو قاموا بزيارات لها • وهؤلاء تعود نسبة كبيرة منهم الى بلادها وقد أنطبعت بالطابع الاميركى فى تعاملها مع الناس ، واخذت تستخدم التعبيرات الاميركية فى لغتها والحركات الاميركية فى سلوكها ، بل أن أعدادا منهم تعود حاملة معها تحيزات الاميركيين المريضة ذاتها • فقد عرفت من العرب المقيمين فى أميركا أناسا كانوا يغيرون المبنى الذى يقيمون فيه لو سكنه

زنجي ، حتى لو كان ذا مركز اجتماعى محترم ، وكان عدد منهم يردد نفس الحجج التى يرددها غلاة المتعصبين الاميركيين عن « الملونين » !

ولحسن الحظ أن بلادنا تضم عددا غير قليل من خريجي الجامعات والمعاهد الاميركية ، ممن لايكتفون بالمشاهدات السطحية ولاينجرفون وراء التجيزات الضيقة ، وانما تنفذ بصيرتهم الى ما وراء المظهر السطحى البراق ، ومن ثم فأنهم يحتفظون بموضوعيتهم طوال أقامتهم وبعد عودتهم • والعامل الذى يحدد الفارق بين هؤلاء واولئك هو مدى الوعى الذى يكون الدارس فى أميركا أو الزائر لها مسلحا به • ومن هنا كنا نجد نسبة كبيرة ممن دخلوا أميركا فى مقتبل أعمارهم ، بغير وعى سياسى واجتماعى متماسك ، يجرفهم التيار فى طياته ، ويعودن الينا بمظهر أميركى وعادات وحركات وأيماءات أميركية ، ويحملون معهم ، قبل هذا و ذاك ، أعجابا غير مشروط ، متغلغلا فى أعمق تلافيف أمخاخهم ،بالنموذج الاميركى فى جميع المجالات •

٤ ـ أما الفئة الإخيرة فهم أولئك الذين يتأثرون بالصورة الاعلامية البراقة للحياة الاميركية • ففى « الثقافة العالمية » التى تولدت عن الثورة المعاصرة فى وسائل الاعلام ـ تحتل نواتج الاعلام الاميركى موقع الصدارة • وهكذا تصدر اميركا الى بلاد العالم ـ وبخاصة العالم الثالث ـ أفلامها السينمائية ومسلسلاتها التلفزيونية واسطواناتها ورقصاتها وازياءها • وفي هذه النواتج الاعلامية والثقافية تندس ـ

بطريقة قد لاتكون مقصودة أحيانا ، ولكننى أرجح أنهـا مقصودة فىأغلب الاحيان - صورة براقة للحياة الاميركية ، تمر فى الفيلم أو الحلقة التلفزيونية مرورا عابرا ، ولكنها تؤثر تأثيرا بالغا - على المستوى الشعورى واللاشعورى - فى المشاهدين ، ولاسيما اذا كان الطابع الغالب على حياتهم هو الحرمان • وبمضى الوقت تترسب فى أذهانهم صورة أمريكا الضخمة ، الفخمة ، المترفة ، القادرة على كل شىء ، والتى لايقف فى وجهها شىء ، ويكون لهذه الصورة حتما تأثيرها فى وعيهم الاجتماعى واختياراتهم السياسية •

هذه الفئة الاخيرة ، الخاضعة للتضليل الاعلامى المنهجى المدروس ، تؤلف الشطر الاكبر من أنصار أميركا فى بلادنا ، ولكنها فئة يستطيع المرء أن يتفاهم معها دون أن يخشى من أن تطغى عليها مصالحها أو أنانيتها أو تحيزاتها • ومن ثم فان حديثى موجه أساسا الى أفراد هذه الفئة ، وان كنت آمل بطبيعة الحال أن يمعن النظر فيه بعض أفراد الفئات الاخرى على الاقل • ففى اعتقادى أن عرض الصورة كاملة ، ومن كافة جوانبها ، يمكن أن يفتح امام الكثيرين أبوابا للتفكير ولمراجعة أرائهم السابقة • وهذا أقصى ما آمل فيه : أن يعيد المعجبون المفتونون بالنمط الاميركى النظر فى أفكارهم ، وان يراجعوا موقفهم فى أطار ما سيقدم اليهم من حقائق آمل أن تكون موضوعية بقدر ما أستطيع ، حتى يتبينوا بأنفسهم ، فى النهاية ، ان كان هذا النمط هو الذى يصلح لمجتمعاتنا ، أم أنه سيكون عائقا فى وجه تقدمنا ، فيما لو أصبح هو السائد بيننا ؟

## الفصل الثانى

## أميركا ظاهرة فريدة لن تتكرر

**الى المؤمنين بمنطق «ان أميركا بنت نفسها حتى أصبحت الدولة العظمى فى مائتى عام ، فلنفتح لها أبوابنا حتى نضمن لانفسنا تقدما مماثلا » ـ الى هؤلاء أقول أن الظاهرة الاميركية فريدة غير قابلة للتكرار ، وانها حدثت نتيجة لتضافر عدد من الظروف التى يستحيل أن تتجمع مرة أخرى فى مكان اخر أو فى زمان مختلف •**

هذه الظروف التى لاتقبل التكرار ،والتى جعلت من أميركا « الدولة الاعظم » فى العصر الحديث ، هى :

**أولا :** أميركا قارة تنتمى الى العالم الجديد • وهذه فى ذاتها حقيقة أساسية تحكمت فى تحديد مركز اميركا وسط دول العالم منذ البداية : فالعالم القديم كان قد استهلك منذ الوف السنين ، ونضبت موارده عبر الحضارات التى تعاقبت عليه • أما أميركا فكانت ارضا بكرا أكتشفت منذ أقل من خمسة قرون ، ولم يبدأ أستغلالها الحقيقى الا منذ ثلاثة قرون ، وربما أثنين • وهى لم تكن أرضا بكرا فحسب ، **بل كانت قارة كاملة غنية بالموارد الطبيعية الى حد مذهل ،** تجاورها قارة أخرى كاملة تكون « ساحتها الخلفية » ، وتخضع لاستغلالها خضوعا مباشرا • وفى هذا الصدد نستطيع تشبيه

أميركا بكنز هائل ظل مخفيا الوف السنين ، ينتظر صاحب الحظ السعيد الذى يعثر عليه ، ولم يكتشف الا بعد أن كانت الكنوز المعروفة قد أشبعت أستهلاكا •

ولقد كان الوقت الذى اكتشف فيه هذا الكنز الجبار وقتا فريدا بدوره ، اعنى عصر النهضة الاوربية ومطلع العصر الحديث ، ذلك العصر الذى بدأت فيه أوربا تتطلع الى السيطرة على الطبيعة عن طريق العلم والتكنولوجيا ، والذى نادى فيه مفكروها وفلاسفتها الكبار بأن يصبح البشر « سادة الطبيعة وملاكها » ، • وأن يكون العلم للسيطرة ، لا للمعرفة فحسب » . فى لحظة الطموح الفريدة هذه وفى العصر الذى خرج فيه الاوروبيون من ظلام العصور الوسطى الطويل وتفتحت أمامهم أمال وتطلعات هائلة ، وفى الفترة التى تخلص فيها الانسان من عبودية الاقطاع ، وانتقل الى التحرر والطموح الرأسمالى وأتاحت له علومه الجديدة ومراجعته الجذرية لتنظيماته الاجتماعية أمكانات للتقدم بغير حدود •• فى هذه اللحظة بالذات ، أكتشفت أميركا ••

وهكذا تضافرت عوامل فريدة فى خلق الظاهرة الاميركية: أرض مليئة بالخيرات التى لم تكد تمس ، يهبط عليها فجأة مجموعة من البشر المنتمين الى حضارة بلغت أوج نهوضها وتفاؤلها ، ويحملون معهم كل خبرات العالم القديم وتراثه العلمي والفكرى ، وطموح الانسان الحديث الى السيطرة على الطبيعة وتشكيل حياة جديدة لنفسه • واذا كانت التقاليد الاوروبية قد وقفت عائقا ، الى حد ما ، فى وجه هذا الطموح فها هى أرض جديدة لاحدود لاتساعها وأمكاناتها ، تفتح

أبوابها على مصراعيها امام الانسان الاوربى وهى تبدو أمامه بلا تاريخ ‥ ولاصاحب ‥

**ثانيا : ولكن هل كانت هذه الارض حقا بلاتاريخ ، وبلا صاحب ؟ من الحقائق التى يعرفها الجميع أن هذه الارض كان يسكنها شعب مسالم** ، ادت به عزلته النائية وعدم أختلاطه بالحضارات الاخرى الى التخلف عن بقية العالم فى ميادين متعددة ، ولكنه كان صاحب حضارة مزدهرة فى مناطق معينة على الاقل : فى المكسـيك ، وأميركا الوسـطى ، واجزاء من أميركا الجنوبية ، وخاصة بيرو .

**غير أن نقطة الضعف الكبرى فى هذا الشعب كانت أدوات الحرب** : فقد طور الغرب الاوروبى أسلحته قبل الفترة التى غزا فيها الارض الاميركية ، الى مستوى كان يتيح له بسهولة ابادة شعب لايسـتخدم سـوى اسـلحة الصيد البسيطة . **وكان هذا التفوق فى التسلح أى فى صناعة القتل ، هو العامل الاول لانتصار المستعمرين الاوروبيين على أصحاب الارض الاصليين ومن المؤكد أن أميركـا ظلت دائما تدرك بوعى تـام أهميـة التفـوق فى التسـلح ، بدليـل أنهـا مازالت تفـوق سـائر بـلاد العـالم فى هذا الميـدان الرهيب** ، ومازالت صاحبة « الفضل »الاول فى « تحسين » أدوات القتل والابادة ، وفى تطوير أنواع واجيال جديدة من الاسلحة ،وأرغام العالم على مجاراتها فى هذا الميدان اللاأنسانى العقيم .

**ولسنا فى حاجة الى أن نشير الى الاساليب البشـعة**

**التى أستخدمت فى هذا التصادم بين حضارة طموح تستهدف التوسع بأحدث وسائل الدمار المعروفة عندئذ ، وبين حضارة مسالمة معزولة** لم تكن تعمل أى حساب لليوم الذى سيهبط عليها فيه هؤلاء الغرباء المتفوقون ، بل لم تكن تتصور أنهم موجودون أصلا • ذلك لان أفلام الهنود الحمر ، على مافيها من تشوية وقلب للحقائق ، كفيلة بالقاء الضوء على عملية الابادة الجماعية التى كان المستعمرون يمارسونها ضد كل من يقف فى وجه توسعهم وأمتداد نفوذهم ـ تلك الابادة التى مازالت تؤرق ضمائر كثير من المؤرخين الاميركيين المنصفين حتى اليوم •

لقد كان الهنود الحمر شعبا أبيا ، لايقبل الذل ، فقاوم بقدر ما يستطيع ، وكانت نتيجة ذلك أن استأصلة الاميركيون من جذوره ، ولم تبق منه الا مجموعات قليلة تعيش فى مستوطنات مقفلة معزولة تستغل فى الأغلب لاغراض تجارية بوصفها متحفا بشريا حيا •

ولكنى أود ، قبل أن أترك هذا الموضوع **أن أطرح على قارئى العربى سؤالا : ألم تستنتج من هذا الوصف لموقف الاميركيين من الهنود الحمر شيئا ؟ الا يذكرنا ذلك ، الى حد بعيد ، بموقف الصهيونية من فلسطين** ؟ لقد كانت أميركا بدورها ، فى نظر المستوطنين الاوروبيين الجدد ، أرضا بلا شعب ، وكان الوافدون من جميع أرجاء أوروبا ، الذين ضاقت بهم قارتهم القديمة أو ضاقوا بها ، والذين كان منهم تجار مغامرون ورجال دين متزمتون وأفاقون وأرباب سجون ومجرمون هاربون ـ كان هؤلاء يعدون أنفسهم شعبا بلاأرض •

كان كل شيء في الارض الجديدة ممهد أمام طموحهم وأهدافهم التوسعية ، ولم تكن تعترضهم سوى عقبة « صغيرة » • هي ان في هذه الارض سكانا ظلوا يعيشون فيها منذ ألوف السنين • اذن فلنتخلص منهم بسرعة ، ولنحاول بعد ذلك أن نسدل ستارا من الصمت والنسيان على تلك الحقيقة « الصغيرة » المزعجة ، لاسيما وان أنجازاتنا اللاحقة كفيلة بأن تبرر في نظرنا ، وفي نظر العالم ، ماحدث في تلك المرحلة الاولى ، المظلمة ، من تاريخنا ••

**لقد أردت أن أجري هذه المقارنة حتى لايشعر القارىء بالدهشة حين يجد أميركا تؤيد أسرائيل الى هذا الحد الذي يبدو أحيانا غير مفهوم** • فالى جانب المصالح المشتركة والسياسة الرسمية ، هناك شيء في نفس المواطن الاميركي يجعله متعاطفا مع الحجج الصهيونية ، اذ يرى فيها ترديدا لنفس الحجج التي قامت عليها بلاده ، والتي كان يستخدمها أجداده في أبادة الهنود الحمر • فهناك عنصر مشترك قوي بين التكوين العقلي والنفسي للانسان الاميركي والانسان الصهيوني : هو الايمان بأن الارض ينبغي أن تنتمي الى من يعرف كيف يستغلها الى أقصى حد ، أما صاحبها الاصلي فليذهب الى الجحيم ، وهو أيضا الالتجاء الى القوة الغاشمة في سبيل أقرار حق الاستغلال ، واستخدام التبريرات المعنوية في وقت لاحق ، **بعد أن تكون القوة المباشرة قد فرضت أمرا واقعا ، وهو الاعتقاد بأن من ينتمي الى حضارة أكثر تقدما ، بالمعنى المادي البحت للكلمة ، من حقه أن يعيش على حساب المتخلفين أو حتى فوق جثثهم** • صحيح أن الفرق بين الصهيوني

والفلسطيني ، من حيث القدرة على أستغلال الارض ، ومن حيث التقدم الحضارى بوجه عام ، لايقارن بالفرق بين الاميركى المستوطن والهندى الاحمر ، بل أن التمييز ـ فى الحالة الاولى ـ يمكن الا يكون قائما على أى أساس ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع ، **وانما المهم أن الحجج التى تقدمها الايديولوجية الصهيونية الى العالم** ، والتى تجد صدى خاصا فى نفوس الاميركيين ، **ترتكز على فكرة التفوق الحضارى** والقدرة على الانتفاع من موارد الارض ، الى أقصى حد ، وعلى الاقلال من شأن « السكان الأصليين » والدعوة الى نسيان وجودهم ٠

أليس من المعقول ، والحال هذه ، ان تكون الصهيونية قادرة على الضرب على وتر حساس لدى المواطن الاميركى العادى ، وان يكون « الضمير الاميركى » على أتم استعداد للتوافق مع العقلية الصهيونية ؟ أيستطيع الاميركى العادى أن يقول للصهاينة : « ولكن الارض ليست أرضكم ، بل كان فيها شعب يمتلكها منذ عشرات القرون » ٠٠٠ أيستطيع أن يقول ذلك دون أن يكون قد أدان نفسه فى الوقت ذاته ؟

**ثالثا :** ولأنتقل ـ بعد هذا الاستطراد ، الذى هو مع ذلك ضرورى بالنسبة الى هدف بحثنا هذا ـ الى العامل الثالث الذى أتاح لاميركا أن تبلغ ما بلغته ، والذى يجعل من أميركا ظاهرة فريدة غير قابلة للتكرار ٠ **هذا العامل هو نظام الرق ،** الذى تفشى فى أميركا على أوسع نطاق فى نفس الفترة التى كان فيها المستوطنون يبنون مجتمعهم الجديد ، والذى اسهم بنصيب هائل فى أثراء هذا المجتمع ٠

ولست فى حاجة الى أن أذكر القارىء ببشاعة الاساليب التى كان يلجأ اليها تجار الرقيق لجلب أدميين مسالمين من مواطنهم الاصلية فى أفريقيا لكى يعاملوا معاملة أسوأ من معاملة الحيوانات فى البلد الجديد ، **فى نفس الوقت الذى كان فيه هذا البلد يقدم الى العالم « وثيقة حقوق الانسان » ـ الابيض بالطبع !** ذلك لان القصة أصبحت الان معروفة ، فى أغلب بلدان العالم العربى ، بفضل عمل من أروع الاعمال الفنية التثقيفية الهادفة ، وهو مسلسل « الجذور » التلفزيونى ٠

ولكن الذى يهمنا فى هذا السياق هو أن نشير الى أن أستغلال عمل ملايين العبيد الاشداء ، طوال أجيال كثيرة ، بلا أى مقابل ، كان لابد أن يسهم بدور عظيم الاهمية فى تحقيق نهوض أقتصادى سريع فى هذا البلد ٠ لقد كان الجنوب الزراعى كله ، والشمال الى حد ما فى البداية ، يعتمد على قوة عمل العبيد المجانية فاذا ماتساءل شخص : كيف أحرز النظام الرأسمالى هذا النجاح السريع فى أمريكا ؟ كان من الواجب أن نرد عليه بما قاله أحد المفكرين الاميركيين المستنيرين وهو يتحدث عن اثر استغلال عمل الزنوج فى الاقتصاد الاميركى : اذا كان لديك تاجران متنافسان ، يعمل لدى احدهما عمال لا يتقاضون أجرا طوال حياتهم ، على حين أن الاخر يدفع لعماله أجورهمبانتظام ، فأيهما تكون فرصته أكبر فى الربح وفى توسيع أعماله ؟

**رابعا : كان موقع أميركا المنعزل ، الذى يفصله عن**

**بقية العالم محيطان شاسعان ، من أكبــر عوامل تقدمهـا .**
ذلك لان الحروب المتوالية قد مزقت سائر البلدان المتقدمة أو المؤهلة للتقدم فى أوروبا واسيا ، على حين أنها تركت أميركا سليمة لم تمس وعلى كل من يقارن بين المستوى الاميركى المرتفع وبين بقية دول العالم أن يسأل نفسه :
**ماذا لو كانت أميركا قد ألقيت عليها قنابل ذرية كاليابان ؟**
أو استنفذت مواردها المادية والبشرية في حروب القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين الرهيبتين فى القرن العشرين ، كألمانيا وأنجلترا وفرنسا ؟ ماذا لو كانت أخصب أراضيها قد أحرقت ، وأعظم مدنها قد دمرت ، وثلاثون مليونا من سكانها قد قتلوا ، كما حدث للاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية وحدها ؟

طوال تلك الحروب كانت أميركا أمنة من كل ضرر : فلم تسقط على أرضها قنبلة واحدة ، ولم يهدم فيها بيت واحد ( اذا أستثنينا حربا واحدة فى أواسط القرن الماضى ، وتلك كانت حربا أهلية بين الشمال والجنوب الاميركيين ) ، ولم تجد ما يدعوها حتى الى اطفاء الانوار ، على سبيل التحوط ، طوال الحرب العالمية الثانية .

**بل أن أميركا لم تسلم من أضرار الحروب فحسب ، وأنما كانت الحروب بالنسبة اليها مصدرا هائلا للربح ، وقوة دافعة ضخمة لاقتصادها** . ففى الوقت الذى كان فيه الاوروبيون يقتتلون بضراوة ، كانت كل معركة جديدة ، وكل دماء جديدة تسيل ، تعنى مزيدا من الربح لمصانع الاسلحة الاميركية ، ووراء مصانع الاسلحة تأتى مئات الصناعات المساعدة

والمساندة ، وتعنى مزيدا من فرص العمل للعمال ومزيدا من التوسع والازدهار لاصحاب الاعمال • واقرب مثل الينا ذلك الاختلال الذى طرأ على بنية الاقتصاد الاميركى كله بعد أنتهاء حرب فيتنام ـ وهى حرب محدودة ، بالقياس الى الحروب العالمية •

وهكذا لم يكن موقع أميركا البعيد ، المنعزل ، مصدر تأمين لهـا من ويلات الحرب فحسب ، بل أتاح لهـا أن تحول الحروب التى تدمر الاخرين الى رصيد أيجابى يزيد من قوتها ويضاعف ثراءها •

**ما الذى نستدل عليه من هذا كله ؟ لقد كانت القضية التى نود أثباتها ، فى هذا الجزء ، هو أن أميركا ظاهرة فريدة لاتتكرر ، وان مجموعة العوامل التى تضافرت لكى تجعل أميركا أقوى واغنى دولة فى العالم كانت بالفعل عوامل لم يتح مثلها لاى بلد اخر • ومن هنا فان المقارنة بين أميركا وبين أى بلد اخر ، اذا كانت تأتى دائما لصالح الاولى ، فأن ذلك يرجع أساسا الى أن الظروف خدمت أميركا على نحو يستحيل تحققه فى أية حالة أخرى •**

ونحن لانعنى بذلك أن الشعب الاميركى قد وجد نفسه محظوظا بفعل مجموعة من المصادفات التاريخية الفريدة التى قدمت اليه القوة والثروة على طبق من ذهب • فمن المؤكد أن هذا الشعب قد بذل جهودا جبارة منأجل أستثمار موارده•ولكن

كانت هناك أيضا شعوبا أخرى تبذل جهودا شاقة،دون أن تجنى مقابلها ثمارا معادلة ، لان مجموعة الظروف التى تحيط بها غير مواتية ، ولان الموارد التى تستغلها محدودة أو شحيحة أما فى حالة أميركا فان كل جهد يبذل كان كفيلا بتحقيق أعظم النتائج ، لان كل شىء كان متوافرا ٠

**وتترتب على هذه القضية نتيجة فى غاية الاهمية : هى أن أميركا لاتصلح أصلا لكى تكون « نموذجا » ٠ ذلك لان من طبيعة الظاهرة الفريدة أن تحدث مرة واحدة ، والا تقبل المحاكاة** ٠ بل أننى سأفترض أفتراضا خياليا ، فأقول أن أميركا ذاتها لاتستطيع أن تكرر نفسها ٠ فلو غرضنا أن قارة مثل أميركا قد أكتشفت فى مكان ما من العالم ، فى الظروف الراهنة، فان من المستحيل أن يظهر فيها من جديد أقوى وأغنى مجتمع فى العالم : لان ظروف العالم الحالية لن تسمح لمستوطنى هذه القارة بابادة شعبها الاصلى بسهولة ، ولن تسمح لهم بجلب ملايين العبيد واستغلال قوة عملهم بلا مقابل ، ولان وجود نظم أقتصادية وسياسية منافسة لن تتيح لهم حرية الحركة والتوسع والامتداد التى كانت متوافرة لهم فى القرنين الاولين من تاريخهم ٠

## الفصل الثالث

# أميركا من الداخل

اذا كانت أمريكا ، كما بينا فى الفصل السابق ، ظاهرة لاتقبل التكرار ، ومن ثم لاتشكل نموذجا يمكن الاقتداء به فى مجتمعات اخرى ، فانا نود أن نثبت فى هذا الفصل أن الانسان الامريكى بدوره نوع فريد من البشر ، وأن نمط الحياة التى يعيشها هذا الانسان لايصلح أصلا للعالم الثالث ، وللانسان العربى بوجه خاص ٠

أن الانسان الامريكى يتمتع ، دون شك ، بسعادة من نوع خاص ٠ فهو ـ على وجه الاجمال ـ غنى ، تحيط به أحدث منتجات التكنولوجيا وأكثرها تطورا ٠ وهو يستهلك بمعدل عال جدا ، يفوق أستهلاك الفرد الواحد فيه أستهلاك عشرات الافراد فى البلاد الفقيرة ، ويحيط نفسه بمجموعة من « المقتنيات » التى تحسده عليها معظم شعوب العالم ٠

وهو يشعر بأنه حر ، بل أنه ينتمى الى أكثر المجتمعات البشرية حرية ٠ وبالفعل يعطيه الدستور ضمانات تؤمنه ضد تعسف السلطة ، ويمنحه حق التعبير عن نفسه ومحاسبة حكومته دون عائق ، ويكفل له أختيار ممثليه دون تدخل سافر ، وسحب ثقته ممن يسيئون استغلال سلطتهم حتى لو كانوا فى أعلى قمم جهاز الدولة ٠ ويمتد شعور الانسان الامريكى بالحرية

حتى يصل الى تفاصيل حياته الشخصية : فلدية حرية كاملة فى أختيار نوع التعليم الذى يريد ، وليس هناك ـ نظريا ـ أية حواجز طبقية تمنع أبناء الشعب من تلقى أرفع أنواع التعليم • وهو حر فى أختيار الطبيب الذى يعالجه ، وفى استطاعته ، لو شاء ، أن يتلقى الرعاية الطبية فى أعظم دور العلاج وأرقاها • وهو حر فى أختيار صاحب العمل الذى يعمل عنده ، وفى أن يغيره كما يشاء لو أتيحت له فرصة أفضل ، بل ان الابن أو الابنة لهما الحرية فى ترك منزل العائلة والبدء فى حياة مستقلة ، ماديا ومعنويا ، منذ اللحظة التى يشعران فيها بالرغبة فى الاستقلال ، وهكذا ••

فاذا أضفنا الى ذلك عدم وجود رقابة حكومية على الصحف ومصادر المعلومات ، كان من السهل أن نفهم ذلك الشعور الحاد بالحرية ، الذى يتميز به الانسان الامريكى • والذى يؤمن بأنه هو السمة الايجابية الكبرى التى يتفوق بها نمط الحياة الامريكى على سائر أنماط الحياة المعاصرة •

هذه هى الصورة كما تبدو على السطح ، وكما يراها معظم الامريكيين والمعجبون بنمط الحياة الامريكى من بين أفراد الشعوب النامية • ولكن وراء هذا السطح أعماقا خفية لاتدركها العين للوهلة الاولى ، وان كان الوعى بها يزداد أنتشارا يوما بعد يوم • ونحن أذ نركز حديثنا على ما وراء المظهر الخارجى ، لانهدف الى تصيد الاخطاء أو أقتناص السلبيات ، وأنما نود قبل كل شىء أن نكمل الوجه الاخر للصورة ، وذلك فى أطار الهدف العام الذى نسعى اليه من هذا البحث ، وهو أن يكون

الانسان العربى رأيه عن النموذج الامريكى بطريقة موضوعية متكاملة ٠

* * *

ان الثراء الامريكى ليس مطلقا ٠ ففى أمريكا فقراء بأعداد لا بأس بها ، وفيها عاطلون يشكلون نسبة من الايدى العاملة قد تصل احيانا الى العشر ٠وقد يرى البعض أن الفقير فى أمريكا أحسن حالا ، على وجه العموم ، من متوسط الحال فى معظم البلاد المتخلفة ، وهو أمر يمكن أن يكون صحيحا اذا ما نظرنا اليه نظرة أحصائية رقمية ،أما اذا تأملناه من منظور أنسانىفلن يعود السؤال الرئيسى هو : ما مدى فقر الفقير فى المجتمع الامريكى ؟ بل سيصبح : لماذا يكون هناك فقراء أصلا ، فى بلد يتمتع بكل هذا الثراء ؟ وبالمثل فان العاطل يحصل ، لمدة معينة، على مبلغ من الضمان الاجتماعى قد يسد أحتياجاته الضرورية ، ولكن المسألة فى هذه الحالة أيضا ليست مقدار هذا المبلغ ، وانما هى : لماذا يكون هناك عاطلون بالملايين ، فى أوقات الرخاء وفي أوقات الازمات على حد سواء ؟ وكيف يرضى المجتمع الامريكى بأن تكون ظاهرة البطالة جزء لايتجزأ من بنيانه ، ومن نظام حياته ؟ ولماذا تظهر البطالة ـ على مستوى غير قليل ـ فى مجتمع يملك وسائل أنتاج هائلة وأمكانات عظيمة للتوسع ؟ وما هو التأثير المعنوى للبطالة فى نفس الانسان ، بغض النظر عن تأثيرها المادى في مستوى حياته ؟

ان التعليل المعروف لهذه الظاهرة هو أن المجتمع الذى يقوم على الاقتصاد الحر بأوضح صوره ، يحتاج الى وجود نسبة من العاطلين عن العمل كيما يساوم بهم ضد مطالبات

العمال المستمرة لرفع أجورهم · وهذا التعليل يفترض ، بالطبع ، أن العامل الانسانى فى الموضوع لا أهمية له ، أى أن احساس العاطل بالاحباط ، وعدم الامان ، والانهيار الناتج عن شعوره بأنه سيظل لفترة ــ لايدرى الى متى تطول ــ أنسانا غير منتج فى المجتمع ، كل ذلك لايدخل فى الحسبان مادامت مصلحة الاعمال الاقتصادية ( البيزنس ) تقتضيه ·

وهنا نضع أيدينا على نقطة أساسية من النقاط التى تميز مجتمع الثراء والوفرة هذا : هى اللا انسانية · وأنا لا أعنى بذلك أن الانسان هناك يحارب أو يضطهد فى كل الحالات ، وأنما أعنى ببساطة أن الانسان « لايعمل له حساب » ــ فهو يأتى على الهامش ، بالقياس الى ضرورات الاعمال الصناعية والتجارية · والعلاقات الانسانية لاتدخل بوصفها عاملا يحسب حسابه عند أتخاذ قرار أقتصادى أو أجتماعى معين · ( من المفارقات الساخرة أن العقل الامريكى هو الذى أخترع علما اسمه « العلاقات الانسانية Human Relations

وهذا العلم يتعلق بالجانب الاعلامى والاعلانى من الاعمال الاقتصادية ، والمتخصصون فيه يبحثون فى كيفية التأثير فى العمال والعملاء ، أى فى المنتجين والمستهلكين ، وفى كيفية التعامل مع المنافسين أو المشاركين فى الانتاج ، كل ذلك بهدف واحد أخير هو زيادة الربح الى اقصى حد ، أى أنه ــ بصريح العبارة ــ هو علم « العلاقات اللا انسانية » · وعندما تكون مصلحة الاعمال الاقتصادية ( البيزنس ) مهددة ، فان العوامل المجردة ، التى لاتقيم أى وزن لما هو أنسانى ، هى وحدها التى

تؤخذ فى الاعتبار • أنه شكل من أشكال قانون الغابة ، ولكنه منقول من صورته البدائية الى صورة شديدة التعقيد ، تلائم أعلى مراحل العلم والتكنولوجيا واعقد صور الانتاج •

هذا الشعور بانعدام الامان ، واحساس الانسان ، عن وعى أحيانا أو بلا وعى فى الغالب ، بأن متطلباته النفسية والوجدانية خارجة عن نطاق العمل ، ولايعمل لها حساب فى جهاز الانتاج الجبار ، يخلق مناخا عاما من التعامل اللا أنسانى بين البشر • ولا أود أن أطيل الحديث فى موضوعات أصبحت الآن معروفة : كالقول مثلا أن نسبة الجريمة فى المجتمع الامريكى تعلو على نظيرتها فى معظم المجتمعات الاخرى • ولكنى أود ، فى صدد مسألة كهذه ، أن أنبه القارىء الى ظاهرة قد لايجدها واضحة فى التحليلات الشائعة : وهى الارتباط الوثيق بين « شكل » الجريمة الامريكية ، والطابع العام للمجتمع •

ففى العالم كله ترتكب جرائم ، والكثير منها بشع ، ولكن الجريمة فى أمريكا لصيقة الى أبعد حد بالمجتمع الامريكى ذاته : أنها أولا جريمة تكنولوجية على أعلى مستوى ، تستخدم فيها أحدث الاساليب والمعدات التى يقف أمامها أعتى اللصوص فى مجتمعاتنا « المتخلفة » مشدوهين بلهاء • ( من دواعى السخرية أن المسلسلات البوليسية الامريكية تتباهى بالاساليب التكنولوجية الفائقة فى عصريتها ، والتى تستخدمها الشرطة الامريكية فى القبض على المجرمين : من طائرات هليكوبتر وزوارق هائلة السرعة وأجهزة لاسلكية خفيفة وأدوات تحليل بارعة وعقول اليكترونية تختزن المعلومات وتعيد تقديمها فى

ثوان ، ومع ذلك فان صانعي هذه المسلسلات لايدركون أن الشرطة لاتضطر الى استخدام هذه الاساليب العصرية المعقدة الا لأن المجرمين بدورهم يستخدمون أساليب مماثلة ، أى لان المجرمين أعتى وأشد أجراما ) • وهى ثانيا جريمة لا أنسانية : فنسبة جرائم القتل التى ترتكب بلا سبب ، أو لاسباب لايمكن أن تؤدى الى القتل فى المجتمعات الاخرى ، نسبة رهيبة • وهكذا تكون الجريمة صورة مصغرة للمجتمع : فى تكنولوجيته الرفيعة المقترنة باللا أنسانية •

أما ظواهر التعصب العنصري ، الذى لاتزال اثاره باقية بوضوح ، وخاصة فى الجنوب الامريكى ، فأمرها معروف • وأما أدمان المخدرات ، وتفكك الاسرة وانحلالها وانعدام المشاعر الانسانية الحميمة فيها ،فتلك أيضا ظواهر أصبح الجميع على وعى بها ، وأصبح الكتاب الملتزمون فى أمريكا نفسها يدقون ناقوس الخطر بشأنها بلا أنقطاع • ولكن الشىء الذى أود أن أوجه اليه نظر القارىء العربى بالذات هو الطابع « العبثى » لهذه الظواهر فى المجتمع الامريكى : فالفنون الامريكية تقدم الينا كل يوم اعمالا تعرض فيها صراعات بين الاب و الابن مثلا ،ولكن المرء حين يتأملها جيدا لايرى « مشكلة » على الاطلاق ، ولو كان الموضوع الذى يدور حوله الصراع فى مجتمع شرقى مثلا ، لامكن حله بسهولة تامة ، دون أن يصابه أحد بعقدة مستعصية • وحين يتأمل المرء ظاهرة أدمان صغار المراهقين للمخدرات ، وأرتكابهم شتى أنواع الجرائم أو الرذائل فى سبيل « حقنة » من المخدر ، يشعر بأن المجتمع الذى يسيطر على مادة الطبيعة على أكمل وجه ، قد وقف عاجزا تماما

عن السيطرة على الانسان ، وأن الدقة الكاملة التى يتسم بها الانتاج المادى يقابلها تسيب كامل واختلال أساسى فى السلوك البشرى .

* * *

ولكن ، ماذا نقول عن الاحساس بالحرية ، الذى يعده الامريكى مفخرته الكبرى ، والذى وصل الى حد أطلاق أسم « العالم الحر » على الاتجاه الايديولوجى الذى تتزعمه أمريكا ؟

* * *

أن فى بعض الضمانات الفردية التى يمنحها الدستور الامريكى للمواطن ، وفى الاحساس بوجود « قانون » لابد من احترامه ـ قانون يسرى على الجميع ، ولايستثنى منه احد .. فى هذا نموذج يمكن أن يتعلم منه الانسان العربى ، والحكومات العربية ، الكثير ، لكن معتسجيلى لاعجابى الخاص بهذا الجانب من « الحرية » الامريكية ، فلابد من تنبيه القارىء الى أن هذا الحكم لايمكن اطلاقه دون تحفظات هامة .

* * *

ان القانون هناك يحترم حقا ، والدستور لايخرق ، وعندما يحدث أنتهاك صارخ تكون العواقب وخيمة ، حتى لو كان المنتهك أكبر رأس فى البلاد . هذا صحيح بلا شك ، ولكن لنسأل أنفسنا : من الذى يضع القانون هناك ؟ أن المؤسسات الدستورية قائمة ، وهى تمارس عملها بكفاءة تامة فى أطار الشرعية السائدة فى البلاد . ولكن ، من الذى يصل الى السيطرة على هذه المؤسسات ؟ وما نوع القوانين التى يتوقع من هؤلاء المسيطرين أن يصدروها ؟ .

في الانتخابات الامريكية ، سواء على مستوى المجلسين المنتخبين ( الكونجرس ) أو محافظى الولايات أو رئاسة الجمهورية ،نجد نموذجا واضحا لطبيعة هذه الحرية الدستورية، فكل شيء يتم بحرية كاملة ، ولا يمكن أن يحدث تدخل من جانب الحكومة لتزييف أرادة الشعب أو توجيه عملية الانتخاب لصالح مرشح معين • ولكن من المحال أن يكون أى شخص قادرا على ترشيح نفسه على نحو يعطيه أملا فى النجاح الا اذا كان منتميا الى طبقة الاثرياء ، أو عاملا فى خدمة طبقة الاثرياء، لان النظام يجعل من المستحيل أن ينجح مرشح ، على أى مستوى ، ما لم ينفق على الدعاية أموالا طائلة • وليس هناك ـ خارج مجموعة قليلة من المفكرين الناقدين ـ من يطرح أسئلة مثل : لماذا تكون قوة الدعاية والاعلان عاملا أساسيا فى النجاح؟ ولماذا يعين كل مرشح ، حتى على مستوى أعضاء الكونجرس ، مكتبا كاملا للاتصال والعلاقات العامة والدعاية ، مهمته تحسين صورته أمام الناخبين ؟ وهل يعد النجاح الذى يتم أحرازه بفضل تدخل عامل كهذا ، مقياسا لحرية أختيار حقيقية لدى الناخبين ؟ والاهم منذلك كله : مانوع القوانين التى سيصدرها مرشح كهذا حين ينجح ، وما هى المصالح التى سيدافع عنها فى هذه القوانين ؟ •

وتنطبق تساؤلات مماثلة على حرية الصحافة وسائر أجهزة الاعلام • فبالرغم من أن الرقابة الحكومية غير موجودة، فان هذه المرافق مؤسسات تجارية فى أغلب الاحيان ، تستهدف الربح وتعتمد على أيراد الاعلانات ، ومن ثم فانها لاتستطيع أن تعبر عن سياسة مضادة لمصالح الشركات التى تقدم اليها

أموالها اللازمة عن طريق الاعلان ، ولو فعلت ذلك لكان أيسر السبل لتأديبها أو لاسكاتها هو حجب الاعلانات عنها ٠

وتتدخل المصالح التجارية ذاتها فى ميادين كالتعليم ، حيث تدار أهم الجامعات على أساس تجارى ، وتعتمد أعتمادا أساسيا على منح المؤسسات وهباتها ، ومن ثم كان لهذه المؤسسات دائما صوت فى أدارة سياستها ٠ واذا كان الشاب « حـرا » فى أختيار نوع التعليم الذى يريده ، فما قيمة هذه الحرية اذا كانت نفقات التعليم باهظة ؟ وماقيمة حريتك فى أختيار طبيبك اذا كان المرض ذاته من أكبر المصائب التى يمكن أن تحل على الانسان ، نتيجة لما يتكلفه علاجه من نفقـات باهظة ، واذا كان اجراء عملية جراحية كارثة لمن كان دخله محدودا ، واذا كانت نقابة الاطباء الامريكية ـ وهى من أكثر الهيئات رجعية في العالم ـ تقف بكل صـلابة ، منذ عشرات السنين ، معارضة لاى نوع جاد من تأميم الطب ، أو حتى أى شكل من أشكال رعاية المجتمع لصحة الفقراء أو المسنين ؟ ٠

أن الامثلة لاحصر لها ، وكلها تدل على أن « الحرية » موجودة قانونا ، ومحترمة شكلا ، ولكن كل شىء يتم تحت السطح ، وبطريقة « قانونية » أيضا ، بحيث تفرغ هذه الحرية من مضمونها الحقيقى ، وتكون أطارا خارجيـا يختلف عنـه محتواه الداخلى كل الاختلاف ٠

* * *

أن تجاهل الاعتبـارات الانسـانية عنصر أسـاسى من عناصر نمط الحياة الامريكى : فالهدف هو أن تدور عجلة الانتاج

بكفاءة ، وأن يزداد الربح وتتوسع الاعمال بلا أنقطاع • وفى سبيل تحقيق هذا الهدف لايقام وزن للعوامل الانسانية ، بل ينظر أحيانا الى الاهتمام بها على أنه سمة مميزة للمجتمعات الاكثر تخلفا ، لان الكفاءة الصناعية والانتاجية ينبغى أن تكون لاشخصية ، مجردة •

هذه حقيقة أشار اليها الكثيرون ، واذا أكدناها فلن نكون قد أضفنا جديدا الى ما كتبه مئات الكتاب عن ضياع الانسان فى المجتمع الصناعى الضخم ، وعن طغيان قيم النجاح والتوسع والربح على القيم الانسانية ، ولكن ، فى هذا الوقت الذى يعرض فيه النموذج الامريكى على الامة العربية بقوة والحاح بوصفه نموذجا ينبغى أن نأخذ به لكى نعوض تخلفنا ، وفى هذا الوقت الذى يتطوع فيه بعضنا للدعاية لهذا النموذج وغرسه فى عقولنا بكل قوة ، لابد لنا من أن نشير الى مفارقة غريبة تنطوى عليها الدعاية الامريكية التى تهدف الى « بيع » نموذجها لبلاد العالم الثالث •

ذلك لان أمريكا تقدم نفسها على أنها حامية القيم المعنوية والروحية والانسانية ، وتكرس جزءا كبيرا من دعايتها لاثبات أن خصومها الايديولوجيين ( المعسكر الاشتراكى ) هم الماديون، على حين أنها هى التى تتجاوز المادية وتعلو عليها • ولما كان هدفنا من هذه الدراسة هو القاء الضوء على النموذج الامريكى ذاته ، فسوف نترك جانبا ما تتقوله أمريكا عن خصومها ، ونختبر هذا النموذج من تلك الزاوية بالذات •

أن المفكرين المدافعين عن نمط الحياة الامريكى يفخرون

بأنه يتيح للانسان كل فرص الربح ، ويؤكدون أن دافع الربح أساسى فى الانسان : فهو القوة المحركة التى تحفزه الى المزيد من العمل والتجديد والابتكار • وعلى الرغم من أن هذه القضية قابلة للنقاش على أوسع مدى ، وعلى الرغم من أن الانسانية قد عرفت نظما تنادى بحوافز أخرى للعمل والمجهود ، غير حافز الربح ، كالسعى الى تحقيق مصلحة المجموع ، أو تحقيق الانسان لامكاناته الخلاقة وما ينتج عنه من أرضاء معنوى ، الخ ••• فاننا نود أن نتوقف عند نقطة واحدة : هى التناقض الصارخ بين تأكيد دافع الربح ، وبين أدعاء حماية المعنويات واتهام الخصوم بالمادية •

أن أمريكا ، وفقا لايديولوجيتها المعلنة صراحة ، لابد أن تكون أكثر المجتمعات مادية فى عالمنا المعاصر • وليس هذا أتهاما وأنما هو اقرار لحقيقة بسيطة واضحة • فحين تقول ان حافز الربح هو القوة الدافعة الى العمل والابتكار ، وحين تتهم خصومك بأنهم لايعطون الانسان فرصة كافية لكى يربح الى أقصى مدى تسمح له به أمكاناته ، يكون معنى ذلك أن فلسفتك مادية حتى النخاع ، وأن تشدقك بحماية المعنويات والروحانيات ليس نفاقا فحسب ، بل هو تناقض صارخ يرفضه أبسط عقل منطقى • ان الانسان هناك لايعمل الا من أجل المزيد من المال ، ومن الارباح ، ومن المستوى المادى المرتفع وقد تكون هذه حقيقة من حقائق الحياة ، وقد يكون هذا هو بالفعل أقوى الحوافز التى ثبت ، حتى المرحلة الحالية من تاريخ البشر على الاقل ، أنها هى التى تحرك الانسان الى الانتاج وبذل الجهد • هذا كله جائز ، ولكن ليست هذه هى القضية

التى أناقشها ، وأنما الذى أود أن أقوله ببساطه هو : اذا كنت من أنصار هذا الرأى فكيف تدعى أنك خصم للمادية ، وكيف تنصب نفسك حاميا للمعنويات وحارسا لانسانية الانسان ؟

هذا التناقض يمثل ، فى رأيى ، خدعة من أخطر الخدع الفكرية التى تتعرض لها شعوب العالم الثالث • وعلينا أن نتنبه بكل وعى الى هذه المغالطة فى الوقت الذى يطرح فيه النموذج الامريكى على الساحة العربية بقوة والحاح • ذلك لان مجتمعاتنا مازالت حريصة كل الحرص على وجود حد معين من القيم الانسانية والمعنوية ، ومازالت تؤمن بأن مايحرك الانسان ليس الماديات وحدها ( رغم اعترافنا بأهمية الماديات ) ، وبأن فى الانسان قوى تعلو على السعى المباشر الى الكسب والاقتناء • فاذا تقدمت اليها الدعاية الامريكية على أنها هى التى ترعى هذا الجانب المعنوى فى الانسان ، واذا ظهر بيننا من يبدى أعجابه غير المحدود بالنموذج الامريكى ، فلنقل له : فى أستطاعتك أن تعجب بنمط الحياة الامريكية كما تشاء ، ولكن عليك أن تعترف بأنك تسعى ، فى هذه الحالة ، الى أقامة مجتمع مادى بصورة صريحة مباشرة فى صميم كيانه ، وعليك فى نهاية الامر أن تتحمل العواقب اللا أنسانية المترتبة على هذا الجرى اللاهث وراء المادة ، وهذا التجاهل التام للجانب المعنوى فى الانسان •

## الفصل الرابع

# أميركا وقضايانا السياسية

منذ الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد ، أصبحته أمريكا طرفا فى القضايا السياسية التى تقرر مصير الامة العربية • فطوال الفترة التى سبقت تلك الحرب ، كانت هناك قوى عظمى أقدم عهدا ، مثل بريطانيا وفرنسا تشغل القدر الاكبر من أهتمام العرب ، لانها كانت تمثل الاستعمار التقليدى، أو قوى منافسة له ، تمثل شكلا جديدا من أشكال السيطرة يريد بسط نفوذه على العالم بالقوة العسكرية المباشرة ، كألمانيا النازية أو أيطاليا الفاشية • وكانت المشاكل التى تعترض الفكر السياسى العربى ازاء هذه القوى الاستعمارية التقليدية واضحة وبسيطة : فالصراع بين الامة العربية والدول الكبرى كان ينحصر ، عندئذ ، فى السعى الى الاستقلال الوطنى واخراج المحتل من الارض • ومن جهة أخرى فان المعسكر الآخر ، المنافس ، الموجود فى ذلك الحين لم يكن يقدم نفسه الى العالم العربى على أنه يمثل نظاما متكاملا للحياة والفكر والسياسة الاجتماعية والاقتصادية ، أى على أنه صاحب أيديولوجية تسعى الى الانتشار عن طريق الاقتناع ثم الاعتناق ، بل كان أقصى مايغرى الاخرين أو يهددهم به هو أنه مجتمع عسكرى قوى يحشد كل طاقاته من أجل الغزو والتوسع والحصول على مزيد من المجال الحيوى •

على أن تغيرا جذريا قد طرأ على هذه الصورة المبسطة المباشرة منذ الحرب العالمية الثانيــة فقد دخلت أمريكـا الى المنطقة بكل ثقلها ، وكان تحقق الاستقلال الوطنى من الاستعمار التقليدى من أهم العوامل التى ساعدتها على التغلغل السياسى فى البلاد العربية ، بل أنها فى بعض الحالات ساعدت الدول العــربية أيجـابيا على تحقيق اسـتقلالها الوطنى لكى تزيح الدول الاستعمارية القديمة وتفسح لنفسها مجال التغلغل فى المنطقة بأشكال جديدة ، ولاهــداف جديدة • وفى الوقت ذاته لم تعد القوة المنافسة لامريكا هى النظم الفاشية التى لاتمتلك شيئا تقدم به نفســها الى العالم سوى قوتها العضــلية ــ أن جاز هذا التعبير ــ بل أصبحت أيديولوجية متكاملة ، قد تتخذ شكلا معتدلا هو الاشتراكية ، أو شكلا متطرفا هو الشيوعية ، ولكنها فى كل الحالات تقدم نفسها الى المنطقة باعتبارها بديلا جديدا يقدم حلوله الخاصة ، المتكاملة ، للمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوطنة فى مجتمعاتها • وكان على أمريكا ، أمام هذا المنافس الجديد ، أن تضاعف من جهدها من أجل صد التيار الايديولوجي المنافس لها من جهة ، واقنـــاع دول المنطقة بتفوق النموذج الامريكى وصلاحيته للتطبيق فى مجتمعاتها ، أو على الاقل تخويفها من الخصم الايديولوجى الى الحد الذى يدفعها الى الاحتماء بأمريكا عسكريا وسياسيا •

وهكذا وجدت الدول العربية نفسها ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تواجه خيارا جديدا كل الجدة لم تألفه طوال العهود السابقة التى كان العدو فيها محددا بوضوح ، وكانت طــرق النضال فيها معروفة ومباشرة • فقد أصبح عليها أن تحــدد

موقفها أزاء معسكرين متضادين ، لم يكن أى منهما يحتلهـ احتلالا عسكريا مباشرا ، ولم يكن المنهج الذى يتبعه والهدف الذى يسعى اليه أى منهما معروفا بوضوح لدى جموعها الشعبية حتى أواسط القرن العشرين • وبعبارة أخرى ، فقد وجد العرب أنفسهم يواجهون ، لاول مرة ، مشكلة الايديولوجية التى أصبحت هى الطابع المميز لصراعات القوتين العالميتين الرئيسيتين بعد الحرب العالمية الثانية • وكان جزء كبير من الجهود التى تبذلها أمريكا من أجل التغلغل فى المنطقة العربية، يتخذ طابع الهجوم الايديولوجى على المعسكر المضاد ، والتبرير الايديولوجى لاسلوبها الخاص فى الحياة •

ولكن ، لماذا سعت أمريكا الى التغلغل فى المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ؟ السبب الذى يعرفه الجميع ، بالطبع ،هو البترول ،الذى كان قد ظهر بالفعل فى البلاد العربية قبل تلك الحرب ، ولكن أمكاناته الهائلة فى المنطقة العربية ، ودوره الحيوى فى مستقبل العالم الصناعى ، لم تظهر بوضوح الا بعد الحرب العالمية الثانية • وبعبارة أخرى فان العوامل التى كانت تدفع الدول الاستعمارية التقليدية الى احتلال اجزاء من الوطن العربى ، كالموقع الجغرافى والسيطرة على طرق برية أو بحرية حيوية ، الخ • لم تعد تحتل المكان الاول فى سياسة الدولة الكبرى التى ورثت الاستعمار التقليدى ( وان كانت تلك العوامل قد ظلت تحتفظ بقدر غير قليل من أهميتها ) ، وأنما حلت محلها الرغبة فى السيطرة على موارد مادة حيوية بدونها يتوقف نبض الحياة فى مصانع العالم الغربى ، ويوجد أهم مخزون عالمى منها فى المنطقة العربية •

على أن أمريكا ، فى سعيها الى بلوغ هذا الهدف ، كانت تحتاج الى وسيلة تختلف عن الوسائل التقليدية التى كانت تلجأ اليها الدول الاستعمارية السابقة • وسرعان ما أهتدت الى تلك الوسيلة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، عندما حللت الموقف فى المنطقة العربية وظهرت لها الامكانات الهائلة التى ينطوى عليها الطموح الصهيونى الى أنشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين • وسرعان ماتبنت قضية الصهيونية ، وساعدت بكل قوة على أقامة الدولة الاسرائيلية وعلى أستمرار وجودها وتوسعها ، متخذة من هذه الدولة أهم أداة لها من أجل تحقيق هدفها فى السيطرة على المنطقة ، وعلى مواردها •

* * *

وهكذا يتبين لنا ، من العرض الموجز السابق ، أن بين العرب وأمريكا ثلاث قضايا رئيسية ، هى : الاختيار الايديولوجى ، والبترول ، واسرائيل •

وفى اعتقادى أن مناقشة هذه القضايا الثلاث كفيلة بالقاء الضوء على طبيعة العلاقة بين أمريكا والعرب على المستوى السياسى ، ومن ثم فأنها تعيننا على تحديد موقفنا من أمريكا على أسس فكرية أكثر رسوخا • وسوف نناقش هذه القضايا الثلاث بالترتيب الذى أراه منطقيا ، فنبدأ بقضية البترول ، ثم أسرائيل ، وأخيرا الايديولوجية •

● **قضية البترول :**

ليس من الصعب أن يستنتج المرء أن قضية البترول هى

القضية الاساسية والحاسمة فى تحديد موقف أمريكا من العرب ، وموقف العرب من أمريكا ، طوال الاعوام الثلاثين الماضية • صحيح أن هناك قضايا أخرى هامة تثيرها العلاقة بين هذين الطرفين ، ولكن تلك القضايا لاتكتسب أهميتها الا بقدر تأثيرها ـ أيجابا أو سالبا ـ فى القضية الرئيسية ، وهى البترول •

وربما أعتقد المرء أن هذه القضية لاتؤثر الا فى علاقة أمريكا بعدد من الدول العربية فقط ، هى الدول البترولية ، ولكن الواقع أن الممارسات السياسية التى تقوم بها أمريكا مع الدول غير البترولية تستهدف بدورها هذه الغاية نفسها • فموقف أمريكا من مصر ، ومن اليمن الشمالى ، على سبيل المثال ، يتقرر الى حد بعيد على أساس مصالحها البترولية ، أى أنها حين ترسم سياستها أزاء هذين البلدين غير البتروليين تضع فى ذهنها أساسا تأثير هذه السياسة فى مصالحها البترولية • وأستطيع أن أقول ، بوجه عام ، أنه منذ اللحظة التى تبين فيها وجود البترول بكميات هائلة فى العالم العربى ، سواء من حيث مايستخرج منه أو مايختزن فى جوف أراضيه ، ومنذ اللحظة التى أتضح فيها مدى أعتماد الاقتصاد الغربى كله على هذه المادة الحيوية ، تحددت لامريكا سياسة معينة فى المنطقة ، وأصبحت هذه السياسة جزءا لايتجزأ من الاستراتيجية الامريكية العامة فى العالم المعاصر •

والان ، ما هى الاهداف الرئيسية التى تسعى اليهاأمريكا فى سياستها البترولية أزاء العرب ؟ **الهدف الاول هو الربح** •

وهذا هو الهدف المباشر ، والتقليدى ، فى كل مرة تعثر فيها دولة متقدمة تكنولوجيا وعسكريا على مادة خام ذات أهمية أقتصادية فى أراضى دولة أقل منها تقدما ٠فالشركات الامريكية تجنى أرباحا طائلة من كافة عمليات النقل والتأمين والتكرير والبيع ، الخ ٠ ٠ ٠ ٠ هذه قصة معروفة ، ولكنها تظل حقيقة ذات تأثير دائم ، اذ أن الحرص على أستمرار الارباح وزيادتها يشكل عنصرا أساسيا من العناصر التى تأخذها أمريكا فى أعتبارها عندما تحدد سياستها أزاء أية دولة عربية ، أو أية حركة سياسية أو أجتماعية تظهر فى هذه المنطقة من العالم ٠

**والهدف الثانى هو أستمرار التدفق** ٠ وقد ظهرت أهمية هذا الهدف بالذات بعد الحظر البترولى المؤقت الذى مارسه العرب خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٠ ومنذ ذلك الحين أصبحت أمريكا أكثر وعيا بأهمية هذا العامل الذى يمكن أن يشكل أداة ضغط رهيبة يمارسها العرب ضد المصالح الغربية بوجه عام ٠ ومن هنا فقد حرصت على أن تفعل كل ما من شأنه الا يلجأ العرب الى أستخدام هذا السلاح مرة أخرى ، ولم تتردد حتى فى اللجوء الى التهديد باحتلال منابع البترول اذا أقتضى الامر ذلك ٠

**أما الهدف الثالث فى سياسة أمريكا البترولية فهو أن تحول ـ بكل الطرق الممكنة ـ دون أن يصبح البترول العربى أداة مضادة للمصالح الامريكية** ٠ مثال ذلك أن البترول لاينبغى أن يؤدى الى أن يصبح العرب قوة أقتصادية قائمة بذاتها، تعتمد على نفسها وتنمو بصورة مستقلة عن أطماع الدول الكبرى، واذنه

فلابد من رسم السياسة التى تمنع العرب من أنتهاز الفرصة البترولية المتاحة لهم ( لفترة زمنية قصيرة بالنسبة الى عمر الشعوب ) من أجل احداث نهضة حقيقية فى بلادهم • والوجه الاخر للعملة ، فى هذه السياسة ، هو عمل كل ما من شأنه تحويل تلك الفرصة البترولية الى مصدر نفع للغرب بوجه عام، وأمريكا بوجه خاص ، بدلا من أن تنتفع أصحابها الاصليين •

هذه باختصار ، هى أهم الأهداف التى تسعى أمريكا الى تحقيقها فى العالم العربى فيما يتعلق بتلك القضية الجوهرية ، قضية البترول ، ولما كان الكلام عن هذه الأهداف سيأتى ، بشىء من التفصيل ، فى آخر فصول هذه الدراسة ، فاننا سنكتفى الآن بذكر هذه الأهداف دون تعليق عليها ، وحسبنا أن نشير الى مسألتين جوهريتين تتعلقان بالجانب السياسى لقضية البترول :

المسألة الأول هى أن التهديدات الامريكية بالاحتلال لا تعدو أن تكون عملية تخويف مقصودة • فهى تظهز دائما فى مناسبات معينة ، وتسرب بطريقة مدروسة ، وتخدم أغراضا محددة بعناية • ولكن تنفيذ هذه التهديدات ، فى ظروف العالم الحالية ، أمر يصل فى صعوبته الى حد يقرب من الاستحالة • ففى وقت الخطر ، ليس أسهل من قيام عمليات تخريب واسعة النطاق تعطل انتاج الآبار وقدرة الانابيب على النقل لمدد طويلة ، وهو أمر تعرفه أمريكا جيدا ، ولا تستطيع منعه لو تطورت

الأمور الى الحد الذى يستدعى حدوثه • ومن جهة أخرى فان التوازن الدولى الدقيق ، وخاصة بعد سياسة الوفاق ، يمنع أمريكا من ممارسة هذه السياسة العدوانية فى منطقة قريبة كل القرب من حدود خصمها الرئيسى ، وهو الاتحاد السوفيتى • فقد تجاوز العالم الى غير رجعة تلك المرحلة التى كانت فيها الدول الكبرى تستخدم السلاح دون رادع من أجل أى بلد تطمع فى موارده الاقتصادية ، بل أصبحت كل دولة تعمل حسابا لعشرات العوامل قبل أن تقدم على أبسط خطوة عسكرية • ولو كنا فى القرن التاسع عشر ، لاحتلت أمريكا منابع البترول فى غمضة عين دون أن يوقفها أحد ، أما فى ظروف العالم الراهنة فان التهور العسكرى لم يعد ممكنا • واوضح دليل على ذلك هو موقف أمريكا من احداث ايران : فلو كانت فكرة الاحتلال المباشر قابلة للتنفيذ لكانت ايران أحق من غيرها بذلك ، ولكن التوازنات الدولية الدقيقة شلت حركة امريكا عن التدخل ، وقدمت بذلك الى الثورة الايرانية خدمة كبرى •

أما المسألة الثانية فهى أن البترول ، مثلما أنه هو بيت الداء ، فهو أيضا أصل الدواء • لقد كان البترول هو نقطة البداية فى الاهتمام الامريكى المكثف بالمنطقة العربية ، منذ فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان بالتالى هو العامل الأساسى الذى يكمن وراء كل التدخلات الامريكية فى المنطقة • وكل السياسات التى تهدف فى

النهايــة الى أن تضمن دوران بلدان المنطقــة فى حلقة النفوذ الامريكى • فاذا شـاءت شـعوب المنطقــة أن تتحرر حقيقـة من هذا النفوذ الامريكى ، وأن تسير فى طريقهـا المسـتقل ، فلا بـد أن يكـون البترول احـد المفاتيـح الرئيسية التـــى تستخدمها من أجـل الخروج من ســجن التبعية والانقياد •.

وحين أقــول ذلك ،فأنا لا اعنـــى بالضرورة أن تقــوم الدول العربيــة باستفزاز أمريكــا ، أو الغرب ، بتروليــا ، الـى الحــد الذى يدفــع أمريكـا الى المغامـرة ، اعتمادا علـــى العامل الذى أشرنا اليـــه منذ قليل ، وهو أن موازين القـــوى لا تسـمح الآن بالتدخل العسكرى السـافر • فمثل هـذا التهـور المتطرف ليس من مصلحة أحـــد • وكل ما اعنيــه هو أن العرب يجب أن يقفــوا بحزم فى وجــه أيــة تدخلات سياسية أمريكية تتــم بحجـــة تأمين الموارد البترولية التى لا يستغنى عنها الاقتصـاد الغربى •

اننى أذهب الى حــد القــول بأن المصالح الامريكيـــة والغربيــة ، فى الميـدان البترولى العربى ، لا يمكن أن تتعرض لتهديد حقيقى ، حتى فى أســوأ الظـروف ( من وجهـــة النظر الامريكية ) • ذلك لان أى نظـام حكم عربى ، مهما كان تطرفــه • لن يقطــع البترول نهائيـا عن الغرب • وحتـــى لــو تحقق تأميم كامل ، فى جميــع المراحـل ، للصناعـــة البترولية ، فلا ينبغى أن يكون هذا ذريعـــة لتدخل أمريكـا بحجــة تامين موارد البترول • ذلك لان التضـاد بيـــن **التامين والتاميم** هو تضـاد زائف ، مصطنـــع ، لســـبب بسيط هو أن البترول سـلعة لابــد أن تبـاع ، ولان خصــوم

أمريكا فى الكتلة الشرقية لديهم ما يكفيهم وزيادة .
فأين يذهب البترول فى هذه الحالة ، وهل يحتمل أن توقف الدول العربية ، مهما كان تطرفها ، نموها الداخلى من أجل معاكسة أمريكا ؟ هذه كلها افتراضات خيالية .
ولكن الشىء الحقيقى هو أن ما يتعرض للخطر فى هذه الحالة ليس الامداد بالبترول ، وانما **هو شروط معينة** للتعامل فى هذه السلعة الحيوية : فالخطر الذى تخشاه أمريكا ، هو رفض الاستغلال والسيطرة واستمرار الانتاج بالمعدلات التى تحتاج اليها السوق الغربية ، لا وفقا لاحتياجات البلد المنتج من الدخل البترولى ، ولو قبلت أمريكا التعامل مع الحكومات المنتجة ـ مهما كانت درجة تطرفها ـ بشروط متكافئة ، لما أصبح هناك شىء مهدد ، ومعنى ذلك ، باختصار ، هو أن التهديد بالاحتلال يرجع الى الرغبة فى استمرار الاستغلال ، لا فى تأمين موارد مستمرة من البترول .

واذن ففى القضية الأولى من القضايا السياسية التى تطرحها علاقة العرب بأمريكا ، اعنى قضية البترول ، تقف هذه الأخيرة موقف الطرف المتحكم الذى يستغل قوته من أجل فرض شروطه الجائرة . وعلى الرغم من أنه لا يتعرض لتهديد حقيقى ، فانه يلوح فى أوقات محددة مدروسة باستخدام القوة الغاشمة ، ويهدد بالاحتلال ، لا لشىء الا لكى يحافظ على العلاقة غير المتكافئة فى التعامل بهذه السلعة الحيوية ، مما يشكل أسلوبا فى العلاقات الدولية عفا عليه الزمان ، ويضفى ظلالا قاتمة على النموذج الامريكى الذى لايزال يبهر الكثيرين . !

# الفصل الخامس

## قضية اسرائيـل

لابد لكل من يبهره النموذج الامريكى ، ويحلم بتحقيقـــه فى بلــده العربى ، أن يواجــه مشــكلة أساسية ، هى التوفيق بين اعجابــه المفرط بأمريكــا ، وبين ما يعرفــه عن الارتبــاط الوثيق بين أمريكـا واسرائيـل ، والذى يحـــدث عـــادة هو أن المعجبين بأمريكـا يصـورون هذا الارتبـاط بصــورة مشــوهة ، أو مخففة ، لا تعبر عن حقيقته ، وانما تعبــر عــن رغبتهم ـ الواعيــة أو غير الواعيــة ـ فى الاحتفــاظ بصــورة نقيــة لامريكــا من جهــة ، مــع عــدم التفريط فى موقفهم تجاه اسرائيــل من جهــة أخــرى . **وتــدور هذه الصــورة المشــوهة عــادة حــول فكــرة رئيسية** ، هى ان **الارتبــاط بين أمريكــا واسرائيل مؤقت ، وأن فى استطاعة العرب ، لــو أجــــادوا اســتخدام الأســاليب السياسية والدبلوماسية ، ان يفكــوا هــذا الارتباط ، ويوجهــوا السياسة الامريكية نحو الانحيــاز لهم ، وان يضمنوا على الأقــل وقوفهــا على الحيـــاد ، بحيث تتخــذ فى نهايــة الأمــر خطــا متوازيــا بين الطرفين .**

هذه الفكــرة تحاول فى واقــع الأمــر ، ان توفق بيــن شيئين لا يمكن أن يتلاقيــا ، وهما الحرص على ارضـــاء أمريكــا من جهــة ، والتصــدى لاسرائيل من جهة أخرى . والواقــع أنــه ، اذا كانت احــداث الأعــوام الثلاثين الأخيرة

قـد اثبتت شيئا ، فهو أن الارتبـاط بين امريكـا واسرائيل ارتبـاط عضوى لا ينفصم ، **وانـنـا لا يمكن أن نكـون جادين لـو حاولنـا ان نحتفظ بصداقتنـا لامريكـا ، وان نقـف فى الوقت ذاته موقفـا حازما فى وجـه النزعة التوسـعية الاسرائيلية** • فهذان موقفـان لا يجتمعـان وكـل تجاربنـا السياسية الماضية تثبت ذلك :

فكل من يختـار البديـل الأول ، اعنـى صداقة امريكـا وتأييد اتجاهاتها العامة وتـرك المجـال أمامهـا لكى تتغلغـل استراتيجيـا واقتصاديـا فى المنطقـة ، لابـد أن ينتهـى بـه الأمـر الى موقف متهاون فى القضيـة الأخـرى ، قضية اسرائيـل • وكـل من يأخـذ البديـل الثانـى مأخذ الجـد ، اعنى من يريد الوقوف بحـزم وصلابة فى وجـه الاطمـاع الصهيونية ، لابـد أن يصطـدم ، بشـكل أو بأخـر ، بالمصالح الامريكية ، وان يتخلى عن وهـم الاستعانة بأمريكـا من أجـل زحزحـة اسرائيل عن مواقفهـا •

**هذه هى القضيـة** فى شـكلها البسـيط ، الصريح ، الذى لا يعرف الالتـواء أو المواربة •

* * *

**انموقف امريكا مناسرائيل يرتبط ارتباطا جوهرياوأساسيا بقضية البترول :** ومنذ اللحظـة التى ادركـت فيها امريكـا خطـورة الثـروة البترولـيـة الكامنة فى الارض العربيـة على مصالح الغرب كله ، اقتصاديـا واستراتيجيا ، اتخـذت

قرارهـا الحاسـم : وهو ان تقف الى جانب اسرائيل علـى طـول الخط ، وان تحافظ على وجودهـا كما لـو كانت ولايـة امريكية ، أى كمـا لـو كان الاعتـداء عليها اعتداء علـى أراضى أمريكا ذاتهـا ، وان تؤيـد جميـع مطالبهـا ، مشروعة كانت أم غير مشروعـة ، على حساب العرب ٠

وانى لأكـاد أجـزم ، عن طريق الاستنتاج وحده ، بأنـه يوجـد فى مكـان ما من ادراج مكاتب صانعى السياسـة الامريكية ، تقرير أو تخطيط استراتيجى أساسى وضـع فـى أعقـاب الحرب العالمية الثانية ، يوجـه السياسة الامريكيـة الى تأييد اقامة دولة لاسرائيـل على أرض فلسطين ، والـى تبنى القضية الصهيونية ، والاعتمـاد على اسرائيل بوصفها الركيزة الكبرى للسياسـة الامريكية فى المنطقـة ، هـذا التقرير لابـد أنـه يسـتند الى أساسين مترابطين :

**الأسـاس المباشر** هو أن اسرائيل خير ضـمان لتدفـق البترول العربى ، بامكاناته الهائلة ، الى مصانـع الغـرب وشركاتـه ٠

**والأساس غير المباشر** هو أن وجـود اسرائيل سـيخلق مشـكلة سياسية وعسـكرية وحضارية كبرى لسكان المنطقـة العربيـة ، تحتـل مكان الصدارة فى تفكيرهم ، وتشـغلهم عن قضاياهم الأخـرى ، وتمتص طاقاتهم الاقتصادية وتوقف نمو بلادهم ، بحيث تظـل فى حاجة دائمة الى العـون

الخارجى ، والعون الامريكى بوجه خاص ، وبحيث ينتهى بها الأمر الى الاستعانة بأمريكا نفسها ضد اسرائيل ، أى بأمريكا ضد أمريكا ! ٠

وأكاد أجزم بأن هذا التقرير الامريكى يحذر صانعى السياسة فى هذا البلد من أن امكانات العرب البترولية يمكن أن تخلق فى المنطقة العربية دولة كبرى فى المدى الطويل ، وذلك اذا تجمعت الثروة البترولية مع ارادة الوحدة بين شعوبها ، واذا أمكن التوفيق بين ضخامة الموارد البشرية لبعض البلاد العربية ( مصر مثلا ) ، وامكانات الاستغلال الواسعة النطاق فى بعضها الآخر ( السودان والعراق مثلا ) وتوافر الموارد المالية عند بعضها الأخير ( البلاد البترولية ) مثل هذه الدولة ذات الامكانات الضخمة يمكن أن تشكل خطرا جسيما على مصالح الغرب ، لانها ستوجه مواردها لخدمتها هى ذاتها قبل كل شىء ، **ومن هنا كان لابد من الحيلولة دون سير تاريخ المنطقة العربية فى هذا الاتجاه ٠**

وأكاد أجزم أيضا بأن هذا التقرير قد انتهى الى أن هناك وسيلتين رئيسيتين لتوجيه الأحداث فى المنطقة العربية على النحو الذى يحول دون اقامة هذه الدولة العربية القوية ، الموحدة ، الغنية ، المستنيرة :

**الوسيلة الأولى هى اقامة اسرائيل كجسم غريب ، مدجج بالسلاح ، فى قلب الارض العربية ٠**

**والثانية هى ادخال لعبة الانقلابات العسكرية فى الوطن العربى ، واخضاع أهم وأكبر شعوب المنطقة لانظمة حكم أحادية الرأى ، أحادية الاتجاه ، تقمع كل معارضة ، وتتخذ من الاستمرار فى الحكم هدفا يعلو على كل هدف آخر ٠**

ولو تأملنا الارتباط الوثيق بين هاتين الوسيلتين ، **والتوافق الزمنى** العجيب بين قيام دولة اسرائيل ووقوع أول انقلاب عسكرى فى المنطقة ، لادركنا الى أى حد نجحت امريكا فى تنفيذ هذا المخطط الاستراتيجى الأساسى ٠

* * *

**على أن الأمر الذى أود أن أؤكده ، فى هذه الدراسة ، بوضوح قاطع ، هو أنه لم يحدث حتى الآن ما يدعو امريكا الى تغيير هذه الاستراتيجية الأساسية ٠** فهناك كثيرون ، فى وطننا العربى ، على استعداد للاعتراف بأن الخط السياسى العام لامريكا كان يسير فى هذا الاتجاه ، ولكنهم يعتقدون أن هذا الخط قد تغير فى السنوات الأخيرة ٠ وسبب هذا التغير ، فى رأى هؤلاء ، هو تبنى بعض الدول العربية خطا معتدلا ، مما جعل أمريكا تشعر لأول مرة بامكان حفظ مصالحها فى المنطقة العربية عن طريق العرب أنفسهم ، دون الحاجة الى الاستعانة باسرائيل وحدها ، أو باسرائيل قبل غيرها ٠

وفى رأيى أن هذا الاتجاه مخطىء فى أساسه ، وأن الخط

العام للسياسة الامريكية فى الشرق الأوسط ، الذى يتخذ من اسرائيل الركيزة الكبرى لهذه السياسة ، مازال قائما ، بالرغم من مظاهر التغير السطحية التى يفسرها البعض خطأ بأنها تحول جوهرى ·

أما الأسباب التى استند اليها فى هذا الرأى الذى أدافع عنه فهى :

**أولا : ان اسرائيل تنتمى حضاريا الى الغرب** · فهى قطعة من حضارة الغرب اقحمت بالقوة على أرض عربية · وكل باحث فى الحضارة الغربية يجعل من « العبرانية ـ المسيحية » أو من عقيدة « العهد القديم والعهد الجديد » ، أصلا أساسيا من أصول هذه الحضارة · وعلى الرغم من كل التقلبات التى مرت بها علاقة الاقليات اليهودية بالمجتمعات الغربية التى تعيش بينها ، فان رواد الصهيونية ، وأهم الوافدين الى اسرائيل ، وأبرز زعماء الدولة الجديدة ، كانوا ينتمون فى صميمهم الى الحضارة الغربية ، وكانوا غرباء ، عقليا ونفسيا وثقافيا ، عن المنطقة التى أصبحوا يعيشون فيها ·

**ثانيا :** أن النظام الذى تطبقه اسرائيل فى بلادها يتفق أساسا مع النظم الغربية · فأسرائيل دولة رأسمالية ذات **أهداف توسعية** · ومهما قيل من وجود تجارب ذات لون « اشتراكى » فى الظاهر ، كالكيبوتز وغيرها ، أو عن المنظمات العمالية الضخمة ، كالهستدروت ، فان هذه

التنظيمات تدين أساسا بالأيديولوجية الغربية الرأسمالية ، وتدافع عن مصالحها بكل قوة ، وأحزاب الأغلبية فيها تسير وفقا لبرامج **تنظر الى اسرائيل على انها جزء لا يتجزأ من المعسكر الغربى الرأسمالى ، بل على انها عضو شديد التطرف فى هذا المعسكر ·**

**ثالثا : ان اسرائيل ، بنظامها الغربى الليبرالى ، هى النظام الوحيد المستقر فى المنطقة** · وليس المقصود **بالاستقرار** هنا ــ كما يفهمه بعض العرب ــ أن تكون هناك حكومة واحدة تظل متربعة على كرسى الحكم وتتقن فن الامساك بزمام البلاد والحيلولة دون وصول أى منافس الى السلطة ، بل ان المقصود به هو أن اسرائيل ، شأنها شأن معظم الدول الغربية المتقدمة ، قد اهتدت منذ وقت طويل الى الصيغة التى تجعل انتقال دفة الحكم من جماعة سياسية الى أخرى يتم بطريقة سلمية ، منظمة بدون انقلابات أو اراقة دماء ، أى انها اهتدت الى الصيغة التى عجزت جميع الدول العربية عن الاهتداء اليها حتى الآن ، وهى أن يتغير الحاكم بهدوء عندما تتخلى عنه الارادة الشعبية ، ويترك مكانه لغيره مغادرا قصر الحكومة سائرا على قدميه الى بيته ، لا محمولا الى قبره أو منقولا فى عربة سجن أو ــ اذا كان سعيد الحظ ــ مشحونا على طائرة حربية تقله الى خارج البلاد ·

وهكذا فان اسرائيل من وجهة نظر المصالح الامريكية ،

هى وحدها **المضمونة • ومن الواضح أنه لم يحدث ، طوال الأعوام الثلاثين الماضية ، أى شىء يدعو امريكا الى اعادة النظر فى العوامل الثلاثة السابقة التى تدفعها الى الاعتماد الكامل على اسرائيل •**

ولكن ، قد يتساءل البعض : ألم يحدث فى السنوات الأخيرة بالذات تغيير فى اتجاه امريكا ازاء هذه القضية ؟ •

نعم ، حدث نوع من التغيير ، ولكنه تغيير تكتيكى فقط • ففى السنوات التى توالت منذ انشاء دولة اسرائيل ، كانت أمريكا تتخذ من اسرائيل حارسا مسلحا لمصالحها ، وكانت الحروب الدائمة التى تشنها اسرائيل على العرب هى الوسيلة التى تحقق لامريكا أهدافها البعيدة والقريبة فى المنطقة • أما فى السنوات القريبة فقد لاحت بوادر تكتيك آخر : فبدلا من ان يضطر العرب الى تخصيص مواردهم المتزايدة لمحاولة الحد من انتشار هذا السرطان المخيف فى جسم الارض العربية ، وبدلا من أن يهملوا مشاكلهم الملحة تحت تهديد السلاح الامريكى المقدم الى اسرائيل ، أصبحت السياسة الامريكية تتجه الآن الى دفع العرب الى الدخول باختيارهم فى معسكر امريكى واحد ، الى جانب اسرائيل ، وحلت أساليب الوعد والاغراء محل أساليب التهديد والتخويف ، وظهرت بوادر تعطى أمريكا أملا فى أن يقبل العرب بالتدريج ، وبمحض ارادتهم ، ما لم يكونوا يقبلونهقبل ذلك الا تحت تهديد السلاح •

**التكتيك اذن هو الذى طرأ عليه التغيير ، أما الاستراتيجية العامة فتظل على ما هى عليه : حماية المصالح الامريكية عن طريق ركيزة أساسية هى اسرائيل ، وكل من يقبل التعاون معها لتحقيق هذا الهدف ٠**

❊ ❊ ❊

فى ظل هذه الاستراتيجية تظل مصالح امريكا مرتبطة ارتباطا لا ينفصم باسرائيل ، أما الدول العربية فان امريكا تدرك جيدا أن المصالح الحقيقية لشعوبها تتعارض معها ، ومن ثم فانها لا تعتمد عليها الا بقدر ما تسير حكوماتها على سياسة مغايرة لامانى شعوبها ، وهو أمر تعلم امريكا حق العلم انه لا يمكن أن يستمر الى ما لا نهاية ولذلك كان اعتمادها على أى نظام عربى أو تحالفها معه **مؤقتا** بطبيعته مهما طال أمده ، وكان دائما **ثانوى الأهمية** بالقياس الى اعتمادها على اسرائيل ٠

وعلى أساس التحليل السابق يتضح لنا أن هناك خطأين أساسيين فى أسلوب تعامل العرب مع امريكا ، فيما يتعلق بالقضية الاسرائيلية :

**الخطأ الأول هو استخدام السلاح الامريكى ، اذا كان الهدف الحقيقى من هذا السلاح هو أن نحارب به اسرائيل ٠ ذلك لأن امريكا هى المورد الرئيسى لأسلحة اسرائيل ٠** ولما كانت مصالحها متطابقة معها تطابقا تاما ، فمن العبث ان نتصور انها ستقدم الينا من السلاح ما يكفينا للوقوف

بحزم فى وجه المطامع الصهيونية • فكل قطعة سلاح تعطى للعرب ، لابد ان تعطى أضعافها لاسرائيل ، فضلا عن أن التسلح عن طريق امريكا لابد أن يكشف لاسرائيل ، من خلالها حليفتها الكبرى ، عن مدى قوة العرب ومواطن ضعفهم أول بأول ، مما يتيح لها أن تجرى حساباتها معهم على أدق الأسس الممكنة •

**ان المنطق السليم وحده يكفى لاقناعنا** بأن **استيراد السلاح من امريكا منأجل محاربة اسرائيل** عملية مناقضة لذاتها • **ولعل فى موقف امريكا من مصر ، فى مناسبتين مختلفتين ، ما يؤكد هذه الفكرة بكل وضوح :**

( أ ) ففى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، عندما كان السلاح المصرى غير امريكى ، حرصت امريكا ، بعد أسبوع الانتصارات الأولى ، على أن تعوض اسرائيل عن خسائرها وتضمن تفوقها فى أكبر وأسرع عملية نقل للسلاح عرفها التاريخ ، وكانت حجة كيسنجر هى أنه لا يمكن أن يسمح للسلاح الروسى باثبات تفوقه على السلاحالامريكى ، ولكن السبب الحقيقى هو أن امريكا ـ وفقا لاستراتيجيتها الأساسية ـ لا يمكن أن تسمح بتفوق حقيقى للعرب على اسرائيل ، ولابد أن تجعل لاسرائيل اليد العليا فى أية معركة مع العرب •

فاذا كان هذا تصرف امريكا فى معركة لم تكن فيها هى

التى وردت السلاح للعرب ، فماذا يكون تصرفها لـو كانت هى التى توزع بنفسها الأسلحة على الطرفين ؟

(ب) وفى الأونـة القريبة لـم توافق امريكـا على توريـد أسلحة لمصر على نطـاق واسـع الا بعـد معاهدة ٢٦ مارس مع اسرائيـل ، أى انهـا لـم تقبل تقديم أسلحتها اليـنـا الا بعـد ان ضمنت أن هذه الأسلحة ستستخدم لاغراض أخرى ، غير محاربة اسرائيل ٠

**ويبدو لـى أن هذا المبـدأ الأخير هو الذى تفترضه امريكا فى حالة أى بلـد عربى يطلب منها السـلاح على نطـاق واسـع ، بحيث لا توافق على هذا الطلب الا بقـدر ما تكون واثقـة من ان لهذا السـلاح اهدافـا أخـرى غير اسرائيل ٠**

**أمـا الخطأ الثانى** فهـو الاعتقـاد بأننا نستطيع أن نفكك التحالف بين امريكـا واسرائيـل ، أو نضعفه عن طريـق اقنـاع امريكـا بأن مصالحها مع العرب أهـم من مصالحهـا مع اسرائيـل فهذا النـوع من التفكير يفترض عـدة أشياء ، كلها باطلة :

فهـو يفترض أولا أن العرب يمكنهم أن يخدموا المصالـح الامريكية دون أن يتهاونوا ويتخلوا عن أمانـى شعوبهم ، أى أن من الممكن أن تتطابق مصالح العرب مع مصالـح امريكـا ، وهو أمـر يدخل فى باب المستحيلات ٠ وهو يفترض

ثانيا ان امريكا تقبل بأن تجد لنفسها حليفا أو حارسا لصالحها غير اسرائيل ، وهو بدوره أمر مستحيل ·
**وكل ما قلناه فى هذا الفصل انما كان محاولة لاثبات استحالة هذين الافتراضين ·**

وهكذا تتضح لنا الصورة على حقيقتها : فقد يكون فى امكاننا أن نستعين بأمريكا فى أمور كثيرة ، ولكن ليس **فى صراعنا مع اسرائيل** · ذلك لان من يستنجد بأمريكا لكى تعينه على الوقوف فى وجه اسرائيل هو ، كما يقول المثل العربى البليغ ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، أو كمن يستعين بزعيم العصابة ليحمى نفسه من تهديدات عضو صغير من أعضائها ـ عضو له حقا مطامعه الجزئية الخاصة ، ولكنه فى نهاية الأمر يأتمر بأوامر الرئيس ، **ولا يستمد كيانه** الا من انتمائه اليه ·

## الفصل السادس

## قضية الايدلوجيا والتنمية

طوال هذه الدراسة ، حاولت بقدر ما استطيع أن اتجنب الألفاظ والمصطلحات الضخمة ، وأن أعرض أفكارى للقارىء من خلال لغة عادية خلت من تلك التعبيرات المعقدة التى اعتادها مثقفونا ، والتى قد تصلح فى مناقشاتهم الداخلية ، ولكنها حين تستخدم فى مخاطبة الجماهير العريضة تؤدى الى فجوة واسعة بين المثقف وجمهوره ، لا يملؤها الا فراغ من عدم التفاهم •

لذلك فاننى حين استخدم كلمة « **ايديولوجيا** » فى عنوان هذا الفصل الأخير ،لا أود من القارىء أن يتصور أننى خرجت أخيرا عن هذه القاعدة ، وخضعت آخر الأمر لعادات المثقفين فى استخدام الألفاظ الرنانة • فالأيديولوجيا **كما تستخدم هنا ، لا تعنى أكثر من مجموعة الأفكار الأساسية التى تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم أو الموقف الأساسي الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وأمانيه فى المستقبل •**

ومن الطبيعى ، فى هذه الحالة ، أن يكون هناك ارتباط **وثيق بين الايديولوجيا ـ مفهومة بهذا المعنى ـ وبين قضية التنمية** • فالتنمية ليست مجرد « نمو » ، كما قد يوحى أصل اللفظ ذاته ، وانما هى مسيرة شاملة تسترشد فى

سعيها الى التقدم بأفكار رئيسية توجهها ، ومن واجب كل من يتصدى لعملية التنمية فى مجتمعة أن يجيب عن أسئلة أساسية مثل : لمصلحة من تتم هذه التنمية ؟ وهل تكون التنمية اقتصادية فحسب ؟ أم تشمل المجال الاجتماعى والثقافى بدوره ؟ وما نوع المجتمع الذى نريد أن نحققه عن طريق هذه التنمية ؟ **ولو أمعن المرء التفكير فى هذه الأسئلة ، لوجدها كلها أسئلة ايديولوجية** ، أى أسئلة تتعلق بمجموعة الأفكار التى يرسم بها المجتمع طريقه فى الحياة • ومن هنا كانت التنمية التى تقوم على أساس رأسمالى ، مثلا ، مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى تهدف الى اقامة مجتمع اشتراكى ، لأن الاختيار الايديولوجى الذى ترتكز عليه التنمية مختلف فى الحالتين •

* * *

على أساس هذه المقدمة الواضحة ، نود أن نعالج الآن آخر الموضوعات التى سنعرض لها فى هذه الدراسة ، وهو فى الوقت نفسه ربما كان أهم موضوعاتها جميعا : فالنموذج الامريكى مطروح اليوم ، بقوة والحاح ، على العالم العربى بوصفه نموذجا مثاليا للتنمية • وانصار هذا النموذج يؤمنون بالأيديولوجية الأمريكية ، ويعتقدون أن الأسس التى ترتكز عليها تصلح للانطباق على المجتمعات العربية ، بل انها هى التى تحمل فى طياتها امكانات حل المشكلات المزمنة التى تعانى منها مجتمعاتنا • فما مدى صحة هذا الاعتقاد ؟ •

فى معالجتنا لهذا الموضوع الحيوى ، لابد أن ننظر اليه من زاويتين مختلفتين ، هما زاويتا البلاد العربية الغنية والفقيرة ، لان مشكلات التنمية فى كل منهما تختلف فى نواح كثيرة ·

### ١ ـ الدول الغنية :

هناك أسباب كثيرة تجعل الدول الغنية أكثر من غيرها تعرضا لاغراء النموذج الامريكى فى التنمية ، وأكثر من غيرها ميلا الى اختيار الايديولوجية الامريكية · ولعل فى واقع الثراء ذاته ، وارتفاع مستوى الدخل القومى والفردى ، ما يفسر هذه الظاهرة الى حد بعيد · **فالأيديولوجية التى تسير أمريكا وفقا لها تفتح الباب على مصراعيه أمام فرص الاثراء ، ولا تضع حدودا لما يمكن أن يملكه الفرد ، على حين أن الأيديولوجية المضادة التى تحاربها امريكا تحد من فرص الامتلاك وتضع مصالح المجتمع كضوابط وحدود لما يمكن أن يحرزه الفرد من ثروات ·**

ومع ذلك فان من واجبنا ان ننفذ بنظرتنا الى ما وراء السطح الخارجى للظواهر ، وأن نتساءل : هل يصلح نمط التنمية الذى تشجعه امريكا للانطباق على البلاد العربية الغنية ، وهل يؤدى هذا النمط الى خدمة المصالح الحقيقية لشعوب هذه البلاد ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال لابد لنا من الاشارة الى ثلاث حقائق أساسية :

**الأولى : هي ان ثروة البلاد العربية ، فى وضعها الحالى ، توظف ـ فيما يتعلق بفوائضها ومدخراتها على الأقل ـ من أجل خدمة الاقتصاد الغربى ، وعلى رأسه الاقتصاد الامريكى** وعلى الرغم من كل الروابط المتينة ، سياسيا واقتصاديا وتعليميا وثقافيا ، الخ ... بين الدول العربية البترولية وبين أمريكا ، فان هذه الأخيرة **لم تسهم فى وضع أى برنامج يساعد الدول الغنية على الانتفاع من أموالها فى ارساء دعائم اقتصاد داخلى متين ، معتمد على ذاته ، قادر على مواجهة الظروف التى ستجد عندما تنضب موارد البترول :**

هذه حقيقة مألوفة ، نقرأ عنها فى صحفنا كل يوم ، ولكنها تظل ـ بالرغم من ذلك ـ شيئا يدعو الى التأمل العميق : فكيف تكون هناك كل تلك الروابط الوثيقة بين البلاد العربية البترولية وبين امريكا ، دون أن تحاول هذه الأخيرة مساعدة الأولى فى الافادة من امكاناتها الاقتصادية الهائلة ، أى نوع من النموذج أو من المثل الذى تضربه تلك الدولة الكبرى فى علاقتها بدول صغيرة تحتاج الى الافادة من تجارب الآخرين كيما تشق لنفسها طريقا مستقلا ؟ ، **أليس ذلك هو نموذج الاستغلال فحسب** ـ أعنى الاستغلال الذى يخدم مصالح الطرف

القوى ولا يكترث بالمطالب الحيوية البعيدة الأمد للطرف الضعيف ؟ ولماذا لا تساعد أمريكا الدول العربية البترولية على وضع برنامج للتنمية توظف فيه معظم فوائضها المالية فى الداخل ، بدلا من أن تودعها فى بنوك غربية وأمريكية لخدمة اقتصاد هو أصلا قوى معتمد على ذاته ؟ **أليس هذا دليلا على التعارض بين النموذج الامريكى وبين أبسط منطلبات المستقبل لدى الدول العربية الغنية ؟**

**والحقيقة الثانية** هى أن أمريكا لا تكتفى بالافادة من فوائض الأموال العربية لخدمة مصالحها الخاصة ، ولا تكتفى بالامتناع عن الاسهام فى أى برنامج شامل يضمن للدول العربية الغنية مستقبلا مأمونا ، بل أنها **تضع نصب أعينها استنزاف الثروة البترولية العربية فى أسرع وقت ممكن ، دون أية مراعاة لحاجات البلاد المنتجة** ، فأية محاولة لخفض انتاج البترول الى الحد الذى يتمشى مع المطالب الحقيقية للبلد المنتج ، تلقى مقاومة من الطرف الامريكى ، لأن ما يحرص عليه هذا الطرف هو سد حاجات الاقتصاد الغربى ، وليس مراعاة مطالب المنتجين على الاطلاق .

ولو قيل انهذا أمر لا مفر منه ، لأن فى الغرب مصانع لابد لها أن تعمل ، وهى تحتاج الى كميات يومية هائلة من البترول ـ لو قيل هذا لقلنا أن هذه حجة غير ملزمة على الاطلاق ذلك لانالغرب **لا يريد ان يغير نمط حياته** ، الذى

**ينطوى على قدر هائل من السفة والتبديد** ، والذى يستهلك فيه المواد الخام فى العالم ، وليس البترول وحده ، الى حد أصبح يثير قلقا حقيقيا لدى كل من يفكر فى مستقبل البشرية بشىء من التعمق • **ولقد اشترى الغرب نمط حياته الباذخ هذا ، منذ ان كان يملك السيطرة العسكرية الى أن استعاض عنها بالسيطرة الاقتصادية ، على حساب شعوب العالم الثالث** • فاذا كانت هذه الشعوب الأخيرة تعيش حياة الكفاف ، وتنقصها ضرورات الحياةالأساسية ذاتها ، ومع ذلك تظل تعمل وتكافح دون أن تشكو ، **فلماذا لا تتنازل الشعوب الغربية المترفة عن قدر من رفاهيتها لكى تحقق مزيدا من التوازن بين اقتصاديات مناطق العالم المختلفة ؟** الذى يحدث بطبيعة الحال هو أن هذه الشعوب تقبل أى حل - حتى لو كان هو التدخل العسكرى ذاته - فيما عدا المساس بمستوى معيشتها المرتفع ، ومن ثم فانها تستنزف ، من بين ماتستنزفه ، موارد البترول بسرعة تفوق كثيرا ما تحتاج اليه الدول المنتجة ذاتها ،وبذلك تكون عاملا معوقا فى وجه تنمية هذه الدول •

**والحقيقة الثالثة** هى أن الدول الغربية الصناعية ، وعلى رأسها أمريكا ، تحرص على أن **تنشر فى الدول العربية الغنية عادات استهلاكية متطرفة** ، تحقق لها عدة أهداف ، ولكنها تعود على أصحابها بأوخم الضرر :

**( أ ) فالاستهلاك الزائد يعود على الدول الصناعية**

**الكبرى ذاتها بالنفـع المباشر** • وكلما انتشرت بين الشـعوب العربيـة الغنيـة عادات الترف ، والشراء بسـبب وبغيـر سـبب ، وتغيير طراز السـلع والأجهزة الاستهلاكية بلا انقطاع واقتنـاء أحـدث المنتجـات أولا بأول ، مع التخلص مـن القديم بلاثمن ،كان معنى ذلك مزيـدا من النفـع لأصحاب المصانع ؛ ومزيدا من التورط **والادمـان الاستهلاكى** لـدى المشترين •

(ب) والأخطـر من ذلك أن هذا الاسـتهلاك المفرط يفسـد أذواق هذه الشـعوب ويشـوه شخصيتها بالترف الزائـد ، الذي يصـل فى كثير من الأحيـان الى حـد التبديد ، **ويساعد على تنشـئة أجيـال اعتـادت سـهولة العيش حتى أصبحت تعزف عن بـذل أى نـوع من الجهـد أو المعانـاة • ووجـود هذه الرغبـة الطاغيـة فىالحيـاةالسـهلة ، التى يأتـى فيها كل شىء جاهزا بـلا مجهـود ، يتعارض بطبيعـة الحال مع متطلبـات التنمية التى ينبغى أن تعتمد فيها الشـعوب على نفسـها وتبذل فى حاضرها جهـودا تقيهـا شر الحاجـة فى المسـتقبل •**

(ج) وربما قيـل ان شعوب الدول الصناعية الكبـرى تستهلك بدورها على نطـاق واسـع ، دون ان يؤدى ذلك الـى فقدانها حماسـة العمل وبـذل الجهـد •ولكن شـتان ما بين الحالتين :

**فالشـعوب الصناعية قـد مـرت بتجربة الاختراع والابداع**

**بالنسبة الى كل ما نستهلكه** • وهي قـد عايشت التليفزيون منذ أن كان وميضـا خافتـا على شاشـة باهتـة الـى أن أصبح أفلامـا ملونـة وربما مجسـمة ، وعايشت السـيارة منذ أن كانت عربة خيـل مطـورة الى أن أصبحت صالونـا فاخـرا سريعـا صامتـا • أمـا الشـعوب الغنية المسـتهلكة فى بـلاد العالم الثالث ، فلا تعـرف هذا الانتـاج الا فـى صـورته النهائيـة ، ولا تتعامل معه الا عن طريق اسـتعماله فحسـب • **وهى لـم تعايش تجربـة اختـراع ولـم تمـر بمعاناة التطوير والتجويد ، ومن ثـم فان دلالـة الاسـتهلاك عندهـا ،وتأثيره فى شخصيتها ، مختلفـة كل الأختلاف •**

من هذه الحقائـق الثلاث يتضـح لنـا أن نمط التنميـة الذى تشـجعه أمريكا فى الدول العربيـة الغنية يـؤدى بهذه الدول الى أن تنعم بحلم وردى سريـع ، ولكنـه يتـرك الواقع الذى سيعقب هذا الحلم دون معالجة على الاطلاق • ومن هنـا كان واجـب هذه الدول ألا تنسـاق وراء هذا النمط ، وأن تدرك الفوارق بين أوضـاع أمريكا وأوضاعها الخاصـة ، **والاختلاف الكبير فى نموذج الحيـاة الاستهلاكية ونتائجها لـدى مجتمع تكنلوجى متقـدم ، ولدى مجتمع يعانـى من مشـكلات التخلف بالرغم من امتلاكـه ثروة مؤقتـة •**

**٢ ـ الدول الفقيـرة :**

اذا كان نمط الحيـاة الاستهلاكية ، الذى يفتح الأبـواب

على مصراعيها لمنتجات البلادالصناعية المتقدمة ، لا يصلح للبلاد العربية الغنية ، فمن السهل أن ندرك أنه أقل صلاحية للبلاد العربية الفقيرة • فحين تتخذ هذه البلاد الأخيرة من النمط الأمريكى نموذجا ، وحين تحاول أن تقلد أسلوب الحياة الأمريكى ، متصورة أن هذا الاسلوب سينجح عندها كما نجح فى بلده الاصلى ، فانها تقع فى وهم كبير ، وتسقط فى هوة سحيقة قد يكون من الصعب عليها أن تنتشل نفسها منها لأمد بعيد •

ذلك أولا لأن البلد الفقير أقل قدرة من البلد الغنى ، بطبيعة الحال ، على استيعاب أدوات الترف الاستهلاكى • والنتيجة الطبيعية لذلك هى تشجيع فئة محدودة جدا على الاستثمار السريع الربح فى تجارة السلع الاستهلاكية واستيرادها ، وفئة أخرى أكبر قليلا من السابقة ، ولكنها بدورها محدودة ، على اقتناء هذه السلع • أما القاعدة الشعبية الواسعة فسوف تنظر بحسرة الى القلة المحظوظة ، وسوف تتضاعف معاناتها ، لأنها تجد أمامها نماذج صارخة للاستهلاك السفيه من جهة ، ولأن اعباء المعيشة ستزداد ثقلا عليها ، من جهة أخرى ، نتيجة للتصعيد المستمر فى الأسعار ، الذى تحدثه تصرفات تلك القلة المحظوظة •

ومن المستحيل معالجة موقف كهذا عن طريق التبشير

بفلســـــفة « **مجتمـــع الأسرة الواحــــدة** » بيـن أفـــراد المجتمــع الفقيـــر : ذلك لأن فلســـفة « **الاسرة الواحـدة** » **ينبغى أن تكون التزاما من كلا الجانبين : فكما نطالب الفقير بألا يحقـد على الغنى أو يتمرد ضـده ، ينبغى أن نطالـــب الغنى بألا يثير حقـد الفقير وتمرده • ولكن الذى يحـــدث هــو أن فلسـفة « الأسرة الواحدة » ، فى هذه المجتمعـــات الفقيرة ، لا تتذكـر ســوى التزامات الفقير وحـده ، أى التزامات طـرف واحـد من أطـراف « الأسرة الواحدة » ، بينما تتغاضى تماما عن التزامات عضـو الأسرة الغنى تجـــاه « أقربائـه » الجيـاع !**

ان النموذج الامريكى يدعو الى ترك نشاط الأفراد ، فى الميدان الاقتصادى، يسير فى طريقـة حرا ، دون أن تقف فى وجهه أية قيـود ، ودون أن تكون هناك حدود لتوسعه ونموه • ومن الجائز أنه كان لهذه الدعوة ما يبررها فى ضوء ظروف أمريكا الفريدة ، التى عرضناها فى الفصول السابقة : فقد كانت قلة البشر ، وضخامة الموارد ، وأمكانات الاستثمار الهائلة ، والطبيعة المغامرة للوافدين ، كانت هذه كلها عوامل تشـجع على اطلاق العنان للنشاط الفردى حتى يصل الى أقصى مداه •

**وقد أصبح هذا الاتجاه جزءا لايتجزا من البناء الفكرى للمجتمع الامريكى** : فمنذ أكثر من مائتى عام ، نجد الاعلان الامريكى لحقوق الانسان يتضمن ، بصورة واضحة انتقادا لفكرة تدخل الدولة الا فى أدنى الحدود • وهكذا فان أية دعوة الى التأميم ،

أو التخطيط المركزى الموجه للاقتصاد أو التعليم أو الثقافة أو الخدمات الصحية ، تلقى مقاومة هائلة • ومازالت عبارة جيفرسون القائلة : « **ان افضل الحكومات هى أقلها حكما** » ـ مازالت تعد شعارا سياسيا رئيسيا لقطاعات كبيرة فى المجتمع الأمريكى •

حسنا ، هذه على أية حال فلسفة أمريكا الخاصة ، وهى فلسفة نجحت ( برغم تحفظاتنا الكثيرة عليها) فى ضوء الظروف الخاصة والفريدة لهذا المجتمع • **ولكن مشكلة أمريكا ، بعد أن أصبحت القوة العظمى فى العالم المعاصر ، هى أنها لاتكتفى بالدعوة الى هذه المبادىء داخل حدودها ، وانما تبذل كل ما فى وسعها لكى تطبقها على أكبر عدد من دول العالم ، بغض النظر عن ظروفها وأوضاعها الخاصة •**

ان بلاد العالم ، حتى الكثير من الدول الغنية ، تتجه على نحو متزايد الى تأميم مرافق وخدمات أساسية فى المجتمع ، كالتعليم والصحة والمواصلات والاذاعة ، الخ •••

**ذلك لأن التطور التاريخى يثبت صعوبة تطبيق مبدأ « الحد الأدنى من تدخل الحكومة » فى معظم مجتمعات العالم •** وحين نتأمل البلدان الفقيرة بالذات نجد هذا المبدأ مستحيل التطبيق • فعندما تكون الموارد محدودة ، والسكان متزايدين ، **يكون معنى عدم تدخل الدولة هو ترك الفرصة أمام السمك الكبير لكى يبتلع السمك الصغير •** وكما أن الاسرة ذات الدخل المحدود تحتاج ، لكى تستمر فى الحياة ، الى تدبير دقيق لميزانيتها ولأوجه الانفاق فيها ،

ولاتملك ترف التساهل أمام رغبات الأفراد المتباينة ، فكذلك تحتاج البلاد الفقيرة الى توجيه وتخطيط لمواردها المحدودة ، كيما ينتفع بهاعلىأفضل نحو ممكن ، والا كانت الكارثة ، التى تتمثل فى انتعاش أوضاع القلة الضئيلة ، وشقاء الملايين من أبناء الشعب ٠

**واذن ، فالنموذج الامريكى أبعد ما يكون عن الانطباق على مجتمع فقير محدود الموارد ٠**

وهذا أمر لانحتاج فيه الى تفكير عميق ، لأن النتائج العملية ذاتها تثبته على نحو قاطع ٠ ففى كل حالة يطبق فيها هذا النموذج بلا تمييز فى بلد من بلاد العالم الثالث الفقيرة ، تكون النتيجة أخفاقا ذريعا ٠ خذ أوثق الدول صلة بأمريكا ، وأكثرها أقتداء بها : كدول أمريكا اللاتينية ، أو تركيا ، أو فيتنام الجنوبية فيما مضى ، أو تايلاند ، او ايران فى عهد الشاه ٠٠ هل نجح النموذج الأمريكى ، فى حالة واحدة من هذه الحالات ، فى بناء مجتمع تسوده العدالة وينال فيه كل أنسان ـ وخاصة من الطبقات الفقيرة ـ نصيبه المعقول من ثروة المجتمع ؟ **ألا تشترك هذه المجتمعات كلها فى وجود تفاوت صارخ بين طبقاتها ، وعدم التوصل الى حلول لمشكلاتها الأساسية ، والعجز عن النمو والاستثمار الرشيد لمواردها ، وسيطرة أساليب القمع من أجل تغطية المظالم الفادحة ؟**

هذه هى الأمثلة التى نلمسها بأنفسنا ، وهى تقدم الينا ، نحن العرب ـ وخاصة الفقراء منا ـ أبلغ دليل على أن النموذج

. الامريكى الذى يفتتن به بعضنا ، عاجز تماما عن حل مشاكلنا ، **وأن نجاحه فى بلاده ليس على الاطلاق دليلا على أنه يمكن أن ينجح فى ظروف مختلفة كل الاختلاف ٠**

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه عند هذه النقطة هو : **هل تجهل أمريكا هذه الحقائق ؟** هل هى بلد مثالى ، توجد لديه كل النوايا الطيبة ازاء الاخرين ، ولكن سوء حظه هو الذى يجعله فاشلا دائما مع الاخرين ؟ ان المسألة ، بالطبع ، أبعد ما تكون عن ذلك ٠ فأمريكا تعلم تمام العلم أن نظامها لايصلح الا لها ، وأنه فى حالة البلاد الفقيرة بالذات يؤدى الى الفشل التام ٠ **ولكنها ، ببساطة** ، لا تكترث بما يحدث للاخرين ٠

أنها تسلك بطريقة **برجماتية** ( وهى كلمة تعبر عن الاتجاه الفلسفى المسيطر على الفكر والسلوك الامريكيين ، وتعنى ببساطة : **البحث عن النجاح العملى ، بغض النظر عن المبادىء ذاتها** ) فقد كانت ، فى ايران مثلا ، ترى الفقر المدقع والظلم الفادح والثراء الفاحش جنبا الى جنب ؛ **ولكنها لم تهتم** ، وانما ركزت جهودها على التحالف مع الحاكم ومع طبقة المنتفعين المحيطة به ، وشجعته على التمادى فى استبداده وتجاهل مطالب شعبه،بل هى التى علمت زبانيته كيف يتقنون فنون التجسس والتعذيب وانتزاع الاعترافات ، الخ ٠ ومادام الحاكم قادرا على أن يحكم قبضته على شعبه بيد من حديد ، ويقوده رغما عنه الى طريق يحقق مصالحها هى ، فلا يهم على الاطلاق ماذا يحدث لهذا الشعب

ولكن عبرة التاريخ البليغة تثبت لنا أن الانقياد للنموذج الامريكى يقود **الحكام أنفسهم** ، لاشعوبهم المغلوبة على أمرها فحسب ، الى الهاوية • فكيف ينظر المسئولون الأمريكيون الى كارثة الشاه بعد حدوثها ؟ أنهم نادمون لأنهم لم يتنبهوا الى قوة المعارضة ،ولم يتداركوها فى الوقت المناسب ،ولم يساعدوا الحاكم الطاغية على التخلص منها • ولكننا لم نسمع أعتراضا من مسئول أمريكى واحد على السياسة التى يتبعها الشاه ، ولم نلمس لدى أحد منهم ندما على أنهم تركوه يطغى ويستبد ويستبيح أموال شعبه دون أن يقدموا اليه بنصيحة تخفف من غلوائه • **ومعنى ذلك أن الحاكم ، حتى حين يعادى شعبه فى سبيل المصالح الأمريكية ، لايجد من أمريكا مساعدة الا على التمادى فى الطغيان** ، ولايلقى منها أى توجيه يرده الى صوابه أن يقلل من امعانه فى الظلم • وبالاختصار فان أمريكا تجر أصدقاءها حتما الى الهاوية • وهذه ـ كما أدرك بعد فوات الاوان حكام تهاوت تيجانهم فى الاونة الاخيرة ـ عبرة لمن يعتبر •••

أعود ، فى نهاية هذه الدراسة ، فأقول أن المسألة ليست على الاطلاق مسألة أخلاقية :فليست أمريكا ، فى عالمنا المعاصر، هى الفتى القوى الشرير ، الذى يجر أصدقاءه معه الى هاوية الفساد ، وانما الموضوع فى أساسه موضوع نظام لايملك الا أن يسير فى هذا الطريق ، لانه هكذا بدأ ، وهكذا نما وتوسع ، وهكذا يتحتم عليه أن يسير •

أن أمريكا ، بحكم تكوينها ومصالحها الحيوية ، لاتستطيع الا أن تكون كذلك • أما نحن فمازالت أمامنا فرصة للاختيار • وليس هناك على الاطلاق مايرغمنا على أن نختار طريقا ثبت لنا أنه لن ينفع بلادنا الغنية ولا الفقيرة ، ولن يوجه من ينقاد له الا الى طريق الهاوية •

